مذكرات سائق

Memoires d'un Chauffeur

بقلم سيد احمد بن مبارك

إهـــــــــداء

إلى أمي الحنون ***فاطمة بنت الزيقم***، التي كرست لي ولإخوتي وأخواتي شبابها لتربيتنا التربية الصالحة وتعويضنا فقدان الأب المبكر، رغم صعوبة الزمن وقساوة الطبيعة.

إلى الوزير والسفير الأستاذ ***محمد محمود ولد ودادي*** الذي وضعني على الطريق وأناره أمامي. أهدي هذا العمل المتواضع.

بقلم سيد احمد بن مُبارك

صدر في نواكشوط بتاريخ **01** جمادى الثانية **1437** هجرية، الموافق **2016/03/10** ميلادية.

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

Email: sidahmed54@hotmail .com

عنوان الكتاب: مذكرات سائق
المؤلف سيد احمد ولد امبارك
المطبعة المختار
رقم وتاريخ الإيداع 1632 / 2016 / 04 / 22

نبذة عن حياة المؤلف

ولدت في العام 1956 في منطقة تسمى **(رَكْ لِكُيَاطِينْ، قرب اوْدَيْ لِكْشُوزْ)** بولاية تكانت، وعشت طفولتي في ربوع هذه الولاية، وفي الستينيات اجتاح الجفاف مناطق عديدة من الوطن وألحق ضررا بالغا بالثروة الحيوانية، التي كان البدو يعتمدون عليها في حياتهم المعيشية، مما أدى بالكثير منهم إلى الهجرة من الأرياف إلى المدن، ومن بينهم أسرتي التي لجأت إلى مدينة تجكجه واستقرت فيها بشكل نهائي.

بدأت في المدينة البحث عن العمل وأنا ما زلت طفلا صغيرا، لا أعرف إلا حياة البدو وأنماط عيشهم، ولم تكن فرص العمل متوفرة في ذلك الوقت، ولا يوجد منها سوى الأعمال اليدوية، الشيء الذي لم يكن باستطاعتي تحمله.

وفي العام 1973 حاولت الالتحاق بالتعليم النظامي، حيث كانت لدي رغبة شديدة في التعلم، وبما أن عمري قد تجاوز السن المحدد لدخول المدارس اضطررت لاستصدار شهادة ميلاد بسن أصغر، ويعود الفضل في ذلك للسيدة *ليمه بنت عيدي*، الكاتبة الخاصة لحاكم المقاطعة؛ ولكني في النهاية لم أوفق في الالتحاق بالمدرسة، وعندها اتجهت إلى التدريب على قيادة السيارات.

الطريق إلى قيادة السيارات

لقيادة السيارات ـ ككل المهن ـ فنونها وأصول تعلمها، ولكي يتعلمها المرء ويتقنها بشكل جيد يستحسن أن يبدأ بحقيبة "apprenti"[1] وطبعا فهذه الحقيبة ليست مليئة بالعطور. بدأت التدريب في شاحنة عسكرية تابعة لبرنامج يشرف عليه الجيش الوطني، معروف آنذاك بتوزيع الإسعافات على السكان، مع سائق يدعى *الطيب ولد بابته*. وكان معي في التدريب شاب اسمه *السالم ولد أعمر ولد سدوم*. وكان معلمنا ثرثارا ومزاحه ثقيل، يعاملنا بازدراء، فيدعو معاون السائق "**بكلب السيارة**". ولو أنه يقول لي إن المقصود بذلك هو زميلي، الذي كان يصفه بأوصاف غير طيبة، أدت به في النهاية إلى ترك التدريب مبكرا.

وبعد فترة حُوّل هذا السائق وحل محله آخر عسكري يدعى *لخليفه ولد بوشيبه* (يقال إنه في الأصل من منطقة أزواد بدولة مالي المجاورة)، وكان متواضعا بالمقارنة مع سلفه وأكثر إنسانية، وبفضله تعرفت على رئيس فرع الإسعافات في الولاية، وهو عريف أول في الجيش يدعى *محمد لفظل ولد الحاج ولد لفظل*. وهو رجل طيب ولطيف، كان يستقبلنا في منزله في كل مرة بالترحيب ويمزح مع الكل حسب موقعه دون تجريح؛ بما في ذلك أهل أسرته. فكنت أزوره باستمرار رفقة معلمي الجديد حيث نتناول في منزله وجبة العشاء كل يوم. ومع الوقت حصلت بيني وبينه علاقات طيبة بفضلها أهداني أكثر من مرة بعض المواد الغذائية، يقول لي: "**لَحَكْ هَاذْ للخيمه**". (جزاه الله عني كل خير).

[1] معاون سائق

ومن بين زوار منزله أيضا رجل يدعى *الناهي بن عُبيد*، دركي في الولاية، وكان يتباهى دائما بقصص بطولية يدّعي أنه قام بها في حياته، ولم يكن *محمد لفظل* يصدقه في كل ما يقول، ولذلك يتركه يحكي قصته ويصغي إليه باهتمام، وحين ينتهي منها يحكي *محمد لفظل* بدوره قصة خيالية، يقول إنه مر بها هو الآخر فيقول له *الناهي*: "Mon Sergent Chef" **هَاذِ لْمَرَّهْ مَاهِ معقولة**". فيرد عليه: "**ألاَّ كِيفِتْ صَاحْبَتْه**".

وبعد فترة تحولت إلى التدريب في سيارة صغيرة تابعة لمستوصف تجكجه المركزي مع سائق يدعى *سيدي ولد المالك*، (من ولايه لبراكنه)، وذلك استجابة لنصيحة أسداها لي أطباء جزائريون، أصدقاء لي يعملون بالمستوصف في ذلك الوقت؛ وقد تمتد فترة التدريب لأكثر من سنتين بعدها يستطيع المتدرب التقدم لامتحان شهادة قيادة السيارات، ويعود تقدير ذلك ـ حصرا ـ لمعلمه.

وفي شهر ابريل من العام 1977 تقدمت لامتحان رخصة قيادة السيارات في العاصمة نواكشوط، وفي تحضيري لملف الامتحان ـ قبل مغادرتي تجكجة إلى نواكشوط ـ قيل لي إن سني القانوني أصغر من الحد المطلوب، ولذلك استصدرت شهادة ميلاد جديدة، وقد ساعدتني في ذلك السيدة *مَيله بنت البشير*، كاتبة مسؤول الخزينة في المقاطعة.

ولم أتعرض لمصاعب تذكر في الامتحان بفضل تدخل أحد الوجهاء، هو السيد *أحمد بن أجه* الذي كان حين ذاك مسؤولا كبيرا بوزارة النقل، فقد استدعى شابا يدعى *محمد بن عُبيد الله* (من ولاية تُرارزه) يعمل في المصلحة المختصة وسلمه ملفي وكلفه بالإشراف على عملية الامتحان، وقد أنجز ذلك على أحسن وجه.

وبتاريخ 1977/04/27 حصلت على رخصة قيادة السيارات، فئة (أ) وكأني حصلت على شهادة أكاديمية؛ وقد أجريت الامتحان في سيارة عسكرية أيضا وفرها لي أخي الأكبر الذي يعمل في برنامج الغذاء المذكور. وقد جاء تدخل السيد أحمد ولد أجه استجابة لطلب ابني عمي: خطري وسيداحمد اللذان كانت تربطهما به صلة عمل لا أعرف طبيعتها.

وهناك شخص يدعى *عبد الله بن الشيخ*، لعب هو الآخر دورا مهما ينبغي ذكره. فكان يحملني خلفه على دراجته النارية ـ التي ما زلت أتذكر صوت موتورها الحاد ـ من مكان لآخر لاستصدار الوثائق وتحضير الصور الشمسية اللازمة لاستكمال ملف الامتحان. وهو صديق لإخوتي المذكورين أو لبعضهم. فلهؤلاء جميعا مني كل الشكر والعرفان.

الفصل الأول
الخطوة الأولى للعمل

عدت إلى نكجة وطموحي الوحيد آنذاك هو أن أكتتب سائقا في إحدى المصالح الإدارية في الولاية، فذهبت إلى وجيه آخر هو السيد *إدوم بن صمبارة*، الأمين الاتحادي للحزب الحاكم "حزب الشعب الموريتاني" وطلبت منه التوسط لي لدى السيد *الداه بن الشيخ*، والي تكانت من أجل اكتتابي سائقا في الولاية. ولم يتأخر *إدوم* ـ جزاه الله خيرا ـ في الاستجابة لطلبي. وبعد ذلك بوقت قصير استقبلني الوالي في مكتبه وقال لي: "اذهب فورا إلى مقاطعة المجرية، الحاكم ينتظرك هناك، وابدأ معه العمل وسنقوم باستكمال إجراءات الاكتتاب فيما بعد".

كان هذا الكلام جميلا بغض النظر عن كونه مرجّلا. فلم يزودني بمذكرة عمل رسمية وأنا لم أطلبها لجهلي بالأمور الإدارية؛ ذهبت إلى مقاطعة المجرية التي وصلتها مساء نفس اليوم ونزلت ضيفا على أسرة الحاكم، السيد *سيد احمد بن عبد الله*، الذي لم يكن موجودا عند وصولي. استقبلتني أسرته استقبالا حارا وكأنها كانت على علم بوصولي.

وفي المساء وصل الحاكم فتقدمت إليه منحنيا وعرفته على نفسي فوضع يده على كتفي ورحب بي بحرارة. وكان معه أحد الإخوة هو *بله بن الشيباني* فعرفه عليّ، على أني أخ له فعاد ورحب بي من جديد وقال لي: "غدا تبدأ عملك واعتبر هذا البيت مثل بيتك تماما. تسكن فيه وتتصرف كباقي أفراد الأسرة". وكان فعلا يعني ما قال.

أقمت في هذا المنزل بحرية تامة بين أحضان تلك الأسرة الطيبة. التي كانت تعيش الحياة ببساطة ومرح. وكان أفرادها يحبون المزاح كثيرا. وينكتون على بعضهم البعض حتى ولو تعلق الأمر بالحاكم نفسه؛ وكما يقال: "**إذا ضرب الإمام خاف المؤذن**" فلم أسلم من ذلك التنكيت. فكانت لدي بعض الكتب العربية أتسلى بمطالعتها في أوقات الفراغ. ويبدو أن هذا الأمر أثار انتباه أفراد الأسرة؛ وفي إحدى المرات وأنا أطالع واحدا منها كانوا يتبادلون النظرات ويسأل بعضهم البعض بالهمس: "**كطْ شِفْتُ شُفَيْرْ يَكْرَ العربية؟**".

بدأت العمل بدون توثيق رسمي وبدون راتب ولكن الوظيفة لها رزقها. فسيارة الحاكم هي السيارة الوحيدة تقريبا في المقاطعة وكان وجهاء المدينة يطلبون من الحاكم إعارتها من وقت لآخر للقيام ببعض المهام المحلية. وفي هذه الحالة يتحملوا تكاليف المهمة. وهي عبارة عن: **عشرين** لترا من البنزين و**لترين** من زيت المحرك **وربع لتر** من زيت الفرامل و**علبة** من لوازم إصلاح العجلات. بالإضافة إلى منح السائق إكرامية غير محددة. لأن الحاكم ليست لديه ميزانية لمثل هذه المهام الخاصة ولا يستطيع أن يجبر السائق على القيام بها دون رضاه. ولذلك لا بد من "**أخذ خاطره**" كما يقول أهل المشرق. ومع الزمن أصبح هذا الأمر تقليدا يتنافس فيه المعنيون.

وكنتُ أبيع الفائض من تلك اللوازم لتجار معروفين هم أساسا الذين يطلبون إعارة السيارة. ولم يكن يخاف عليهم أني أبالغ في طلب هذه المستلزمات في كل مرة. ولكنهم لا يخوضون كثيرا في التفاصيل. إما تجنبا للحرج أو من باب الكرم: يقول لي بعضهم: "لنذهب وعند العودة نلتق:" في إشارة واضحة إلى أننا نستطيع الذهاب والعودة بفائض ما تبقى من مستلزمات المهمة السابقة؛ وكانت هذه العملية توفر لي دخلا مهما أكثر بكثير من راتبي الشهري لو أنه كان موجودا. وفيما أظن أنه تقليد كان متبعا قبلي.

وفي العام 1978 نُقل **سيد احمد بن عبد الله** من مقاطعة الجرية إلى مكان آخر وحل محله السيد ***إبراهيم أخليل ولد إسلمّ***، ومع الأخير تغيرت الأحوال. توقفت عملية إعارة السيارة. مما أثار استياء الوجهاء. وقد أدى ذلك إلى تراجع واضح في انسياب تعاطيهم مع مصالح الإدارة حيث كان الحاكم السابق يأخذ منهم كلما يحتاجه دون عرقلة ومنذ ذلك الوقت تغير الأمر؛ وقد تضررتُ ـ بدوري ـ من هذا القرار كثيرا. ولكن علاقاتي الطيبة مع هؤلاء التجار في فترة الحاكم السابق نأت بي عن خلافاتهم مع خلفه.

وكنتُ قد تحولتُ قبل مغادرة الحاكم ***سيداحمد بن عبد الله*** إلى السكن مع مجموعة من المعلمين يؤجرون منزلا خاصا. وخلال ذهابي المتكرر مع الوجهاء المذكور كنتُ أتلقى في كل مرة بعض الهدايا من المنمين في البوادي التي كنا نذهب إليها. تتمثل في شاة ذبيحة أحيانا. وأحيانا في بعض الزيوت الحيوانية (ادْهِنْ). ومع الزمن تراكم لدينا الكثير من هذه الحاجات مما جعل زملائي يقررون إعفائي من دفع نصيبي من إيجار ذلك المنزل البسيط. وجاء ذلك بمبادرة من صديقي ***محمد لبير***.

ومن سوء حظ الحاكم الجديد تعطلت السيارة بعد وصوله بفترة قصيرة. وكان ذلك محل شماتة الجميع. ولم يمض وقت طويل حتى اختلفتُ معه. وبدأ ذلك بزوجته السيدة ***عيشة***: فكانت السيارة متعطلة ومتوقفة تحت مبنى منزل الحاكم. المشيد في العهد الاستعماري بشكل هندسي جميل بحيث يمر من تحته تيار هوائي بارد. مما جعله مكانا مريحا في أوقات المساء. خاصة في فصل الصيف الذي هو شديد الحرارة في مدينة الجرية. وقد حد وجود السيارة تحت المبنى من حرية الأسرة في التمتع بهذا المكان. فبعثت إليّ السيدة زوجة الحاكم أحد أفراد الحرس الوطني يدعى ***محمدو ولد العلوم*** وأبلغني أنها قالت له: " ابحث لي عن هذا السائق واتيني به حيا كان أو ميتا ليّخرج السيارة من تحت الدار وإلا سوف أشعل فيها النار".

فكان ردي صبيانيا: خذ هذا الكبريت وسلمه لها تشعلها به. ولا أدري ماذا قال لها بالضبط لكنها أمرت عناصر الحرس والعمال الموجودين بالمنزل وقاموا بدفع السيارة خارج المبنى وانتهت المشكلة. وقال لي هذا الحرسي أيضا إنها استدعت يوما قاضيا إلى منزلها لطلب الفتوى في مسألة فقهية، وأثناء الجلسة كانت تدخن فانزعج القاضي من ذلك وقال لها إن التدخين في مجلس القضاة يعتبر ازدراء بهم. فأمرها زوجها بالتوقف عن التدخين. ولكنها امتنعت.

وبعد وصولها بفترة قصيرة أتتها مجموعة من زوجات وجهاء المدينة لتقديم واجب السلام. فقال لها أحد الحراس: "**هَوْنْ أعْلَيَاتْ مِن أهل الجريه جَايَاتْ لَاهِ إسَلْمْ أعْلِيكْ**" فقالت له بسخرية: "**حَكَ ألّل هِيَّ الجريه امَّلّ فِيهَ لِعْلَيَاتْ**" ورفضت استقبالهن. فكانت متكبرة ويعزو البعض ذلك إلى كونها ابنة أمير وعقيلة حاكم.

كنتُ في ذلك الوقت عضوا في شبيبة حزب الشعب الحاكم، وهذه العضوية تمنحني قوة معنوية كبيرة. ولكن الحاكم ***إبراهيم أخليل ولد إسلمّ*** لا يعير اهتماما كبيرا لهذا الحزب أحرى لعضويتي أنا في شبيبته. وفي جو الخلاف بيني وبينه يقول لي بلكنته المعروفة: "أنا لا أعرف من منّا هو الحاكم؟ هل أنا أم أنت؟". كان الفرق بين الحاكم الجديد وبين سلفه بالنسبة لي كبيرا. الأول عاملني معاملة القرابة، وكنتُ أستحي منه على الطريقة التقليدية الموريتانية المعروفة والثاني عاملني معاملة سائق فقط.

وفي مرحلة لاحقة أدرك الحاكم أنه لا مفر من التعامل مع وجهاء المدينة ولذلك بدأ شيئا فشيئا يتقرب منهم فطلب من أحدهم، وهو ***المصطفى ولد العابد*** أن يبحث له عن القطعة التي تحتاجها السيارة لإصلاحها. فقام المصطفى بأخذها من وجيه آخر هو ***الحسن بن مبكو***. وقمنا بإصلاح السيارة مؤقتا، وذهبنا بها إلى نواكشوط. على أساس إصلاحها أو استبدالها بأخرى جديدة. هكذا قال لي الحاكم. ولكننا في النهاية لم نتمكن لا من إصلاح السيارة القديمة ولا من الحصول على أخرى جديدة.

وصلنا إلى مقر إقامة الحاكم في نواكشوط ليلا. وأمام باب المنزل أمرني بالتوجه بالسيارة إلى قيادة الحرس الوطني حيث من المفترض أن يتم إصلاحها. ووعدني بلقائه في الغد عند وزارة الداخلية. ولم يعرض عليّ الإقامة معه. ولا دعاني - على الأقل - للاستراحة بعد يوم شاق من السفر أمضيناه دون توقف. وبالطبع لم يعطني مصروفات للضيافة.

وبما أني كنت أتوقع مثل هذا الأمر فقد احتطتُ له قبل سفرنا من الجريه. فأعطاني صديقي ***محمد لبير*** رسالة لخاله الضابط السامي في الجيش الوطني **سالم ولد ممو** أوصاه فيها عليّ، وفي طريقي إلى منزله التقيت شابا كنت أعرفه هو ***بسلم ولد خالد*** فعرض عليّ الذهاب معه لاستضافتي حيث يسكن، ولكني اعتذرتُ فأعطاني - جزاه اللهّ خيرا - **مبلغ مائتي أوقية**. وواصلت طريقي إلى المنزل المقصود ونزلت ضيفا مكرما على أصحابه.

وفي الصباح وأنا في طريقي إلى موعدي مع الحاكم اشتريت عددا من جريدة الشعب قرأت فيه أن الحاكم محال للتقاعد، وعند لقائي به عند مدخل الوزارة أخبرته بما قرأتُ. ابتسم وقال لي: "**أهَيهْ، وهَذَا زَادْ شِ زَيْنْ عَنْدَكْ أنت**". دخل الحاكم في المكاتب وبقيت في انتظاره تحت شجرة كبيرة أمام مبنى الوزارة. وبعد انتهاء الدوام الرسمي بدأت أبحث عنه فلم أجده فذهبت بدوري إلى حيث أقيم. وكان هذا هو آخر لقاء لي به.

بقيتُ إذن في نواكشوط في شبه فراغ لا أعرف ماذا أفعل. فانتهزتُ الفرصة لمعرفة ما آل إليه موضوع اكتتابي. ولم أكن أعرف من أين أبدأ؟ فسألتُ. فقيل لي: "اسأل إدارة الوظيفة العمومية". فتوجهتُ إليها وهناك طرقتُ أكثر من باب؛ بعض المكاتب كان مفتوحا ولا يوجد فيه أحد والبعض بداخله أشخاص ولكنهم كانوا مشغولين في الحديث عن أحداث سياسية يشهدها البلد في ذلك الوقت، وبالكاد ردوا عليّ السلام. و حين سألتهم أشاروا عليّ بأن أسلك الاتجاه كذا. وفي المحاولة الأخيرة وجدتُ سيدة جالسة داخل أحد المكاتب فسلمتُ عليها فردت عليّ السلام بشكل أفضل فشرحتُ لها ما أريد.

فقامت وفتحت خزانة فيها العديد من المصنفات الضخمة، عليها الكثير من الغبار. وبدأت تقلبها واحدا واحدا. وبعد بحث طويل عثرت على نسخة من رسالة كانت إدارة الوظيفة العمومية قد بعثت بها إلى وزارة الداخلية تعرض فيها عليها خدماتي. فأعطتني نسخة منها ووجهتني إلى مصلحة الأشخاص بوزارة الداخلية.

يبدو أن الأسلوب الإداري المتبع آنذاك يقضي بأن توجه طلبات التوظيف أولا إلى إدارة الوظيفة العمومية وبعد ذلك تقوم الإدارة بتوجيهها إلى من يهمه الأمر من الوزارات والإدارات المختلفة. ثم تأتي عملية الاكتتاب بعد ذلك. وهكذا فعل الوالي: ذهبتُ إلى مصلحة شؤون الموظفين بوزارة الداخلية وهناك وجدتُ عددا من الموظفين جالسين في مكتب واحد ـ يبدو أنهم كانوا أيضا يتحدثون عن نفس الأحداث السياسية المذكورة ـ فسلمتُ عليهم وأعطيت الرسالة لسيدة من بينهم. وحين اطلعت عليها بدأت تنظر إليّ باستغراب وناولتها لزملائها وبدا على وجوههم جميعا نفس الاستغراب.

ثم دخلت بها على رئيس المصلحة فإذا به يخرج معها وسلم علي قائلا: "أنت هو سيدا حمد ولد مُبارك؟". قلتُ له نعم. فسألني عن اسم أبي وأمي ومكان ميلادي ـ شعرتُ بالخوف قليلا ـ فأعطيته بطاقة تعريفي وعندما اطلع عليها دعاني للجلوس في مكتبه وجمهر حولي كل الموظفين الموجودين في تلك المصلحة فقال لي: "اسمح لنا يبدو أن هناك خطأ قد حصل لقد وصلتنا بالفعل هذه الرسالة ولكن هناك شخص يحمل نفس الاسم كان يعمل في الوزارة وقد تم فصله لعدم أهليته. ثم أعيد للعمل مرة أخرى ثم فصل من جديد وعاد وأرسل ملفات يطلب العمل من عدة ولايات في الداخل. وحين وصلتنا هذه الرسالة اعتبرنا أنه نفس الشخص وللأسف أهملنا الموضوع؛ والآن نحن في آخر السنة المالية والاكتتاب موقوف وفي بداية العام القادم راجعنا وسوف يتم اكتتابك بإذن الله".

كان هذا الكلام في شهر ديسمبر من العام 1979. وبعد عدة أشهر راجعتُ الوزارة ولم أجد الموظف الذي وعدني فقال لي خلفه: "أنت تأخرت كثيرا وقد نسينا إدراج اسمك ضمن قائمة طلبات التوظيف لهذا العام وعليك أن تنتظر العام القادم".

وأثناء هذه الفترة عين ***الداه بن الشيخ*** ـ والي تكانت الذي بدأت معه قصة اكتتابي ـ أمينا عاما لوزارة الداخلية وكان من المفروض أن يكون تعيينه فرصة لحل مشكلتي. فذهبتُ إليه في الوزارة وطلبت مقابلته. وبينما أنا في انتظار ذلك إذا بأحد الإخوة ـ لا أتذكره الآن ـ يخرج من مكتبه فسألني عن سبب وجودي هناك وعندما أطلعتُهُ عليه عاد ودخل على الأمين العام وكعادته استقبلني الأخير فورا. فعرفته على نفسي وقد تذكرني جيدا، فأطلعتُهُ على آخر ما قال لي رئيس مصلحة شؤون الموظفين بالوزارة بخصوص اكتتابي. فأبدى اهتمامه بالموضوع وأعرب لي عن أسفه على ما حصل وطلب مني أن أقدم له طلبا أشرح فيه التفاصيل وأن أسلمه لكاتبته وأن أراجعها بعد شهر تقريبا لمعرفة النتيجة. وتعهد لي من جديد ببذل ما في وسعه من أجل تسوية مشكلتي. كتبتُ طلبا ـ يشبه التقرير ـ وسلمته للكاتبة كما أمر؛ وبعد ذلك ترددتُ أكثر من مرة على ديوان الكاتب العام دون جدوى.

بقيتُ في نواكشوط في فراغ (تَكُوسُو)[2] دام أكثر من سنة. كنت أتردد فيه على بعض المنازل التي أعرف أصحابها وأخرى أزورها صحبة من يعرف أهلها. ومن بين هذه المنازل منزل ***محمد ولد عبد الله*** **(بابا)** كما كنا ندعوه. حيث كنتُ أسكن وكأني في منزل أسرتي تماما. كما كنتُ أتردد كذلك على أسر أهل آبه: ***سيداتي والشيخ واللوله***. وكاد هذا الجو المريح أن يصيبني بالكسل؛ وهنا انتهز هذه الفرصة لأقدم لهم خالص شكري وعميق امتناني واعتذاري عن ما قد أكون تسببت فيه لهم من إحراج.

---

[2] مصطلح شعبي، يطلق على من لا عمل لهم وهو من كلمة الكوس العربية الفصيحة.

وفي فترة ترددي على منزل ***سيداتي بن آبه*** طلبت مني الأخت الكريمة والفاضلة ***منينه بنت أيده*** أن أدربها على قيادة السيارات، مما وفر لي فرصة ملأت بها أوقات الفراغ بعض الشيء، ولكنني للأسف لم أوفق في هذه المهمة، مما سر به الفنان الكبير ***سيداتي***، الذي يبدو أنه كان يعارض هذه العملية من حيث المبدأ. وبعد ذلك طلب مني الأخ ***محمد ولد أجه ولد حد (ألالي)*** أن أدربه على قيادة السيارات أيضا، وكان ***بن حد*** ـ هكذا يختصر اسمه ـ من أذكى تلامذتي تليه ***عيشه بنت اجه بن بابا*** (سيأتي موضوع تدريبها لاحقا).

وفي أحد الأيام إذا بالحرسي المذكور يبحث عني من جديد، وفي هذه المرة يريدني الوالي الذي حل محل ***الداه ولد الشيخ***، وهو السيد ***محمد ولد أعمر***، فتوجهتُ إليه حيث يسكن في حي (K) بالعاصمة، في منزل بدا لي ضخما، لم ألاحظ فيه أية حركة، وكأنه يسكن فيه وحده، وجدته يتناول طعام الإفطار ـ اتضح لي بعد ذلك أنه إفطار على الطريقة الأوروبية ـ فسلمتُ عليه فرد عليّ السلام بشكل خال من أمارات الترحيب: فسألني عن سبب وجودي في نواكشوط فأطلعتُهُ عليه، فتناول ورقة على شكل استمارة **(أمر مهم)** وملأها بخط يده ووقع عليها وسلمها لي وقال لي: "مدير التعليم الجهوي في ولاية تكانت يوجد الآن هنا في نواكشوط، سيارته كانت تخضع للتصليح لكن سائقها استقال. اذهب إليه ونسق معه بخصوص إيصال السيارة إلى الولاية؛ وإذا لم يكن هو جاهزا للسفر، خذ أنت السيارة وتوجه بها إلى تجكجه وسلمها للوالي المساعد، وسوف يعوض لك الأخير عن أمر المهمة وينقلك على حساب الولاية إلى نواكشوط وعندما تعود راجعني لكي أساعدك في موضوع الاكتتاب".

ذهبنا صباحا من نواكشوط ووصلنا مساء نفس اليوم إلى مضارب أهلي في وادي **"أَرْشَ الْمَوْجْ"**[3] قرب مدينة تجكجة وقضينا ليلة هناك وفي أقل من ساعة في الصباح كنا أمام مكاتب الولاية.

[3] أحد روافد وادي تجكجه ويبعد منها كيلومترات قليلة.

دخلتُ على الوالي المساعد وهو السيد ***الطالب اخيار ولد مأمو...*** وأبلغتُهُ تعليمات الوالي، فقال لي بجفاء: "أنا ليس لدي ما أعوض لك به عن أمر المهمة وليست عندي وسيلة نقل أنقلك فيها إلى نواكشوط، اذهب إلى قائد فرقة الدرك وسأقول له أن ينقلك في أول سيارة ذاهبة إلى المجرية حدود نفوذ والي تكانت ودبر أمورك من هناك".

وصلتُ المجرية وبقيت فيها ثلاثة أيام في انتظار إيجاد وسيلة نقل أخرى إلى نواكشوط، وكنتُ أعرف سكان هذه المدينة معرفة جيدة ولذلك لم أجد صعوبة تذكر فيما يخص موضوع الإقامة بتفاصيلها، وبعد أيام وجدتُ سيدة تعرفني فأرسلت معي مبلغ **(ألف أوقية)** لابنها الذي يدرس في نواكشوط وهو ***إبراهيم ولد اطويلب*** فقمتُ تجاوزا بدفع هذا المبلغ أجرة لسيارة نقل إلى نواكشوط على أمل أن أجده عند وصولي وأسلمه لصاحبه.

وفي الطريق بين مدينة مقطع لحجار وقرية **"كَيمي"** التي تبعد عنها كيلومترات قليلة **(للسائل عنها)** أوقفتنا فرقة من الجيش الوطني يقودها الملازم الأول ***لمام بن اطويلب***، وطلب من سائق سيارة الأجرة المساعدة في إصلاح إطار متعطل لسيارته، وبعد وقت طويل تبين أن السائق لم يستطع فك الإطار المتعطل، لأن إحدى الجوزات (les écroue) المثبتة له مهورة (foire). فتدخلتُ وبللتُ فتحة مفك الإطارات (Clé Roue) بالريق ووضعتُ عليه حصيات من التراب وبهذا استطعتُ فك الجوزة المهورة بسهولة، وتم إصلاح الإطار بسرعة نالت إعجاب الضابط وأفراد فرقته، وخوفا من حصول عطل آخر طلب من سائق سيارة الأجرة أن يبقى في السير خلفهم حتى نواكشوط.

وبين بوتيلميت ونواكشوط تعطل إطار آخر فقمتُ أيضا بإصلاحه بسرعة مماثلة فزاد الضابط من ثنائه عليّ وطلب مني أن أحول من سيارة الأجرة إلى سيارته وأمر مساعده أن يترك لي محله في المقدمة. وقد فتح "**شهيتي**" ثناء هذا الضابط بإمكانية الحصول منه على إكرامية تساعدني في تسديد الدين المذكور. وفي الطريق تعرفنا على بعضنا أكثر باعتبارنا من ولاية واحدة وتبادلنا عبارات الود الطيبة. وقد وفرت هذه العملية فرصة له ليفتخر بيّ أمام أفراد فرقته. فقال لهم: "نحن أهل تكانت نتميز بذكاء كبير عن غيرنا". دخلنا نواكشوط في حدود الساعة السابعة صباحا. وعند ملتقى الطرق المعروف الآن "بمديد" ودعني ذلك الضبط بحرارة ومضى كل منا في سبيله.

أمضيتُ أياما وأنا أبحث عن ذلك المبلغ ولكني لم أجد منه سوى **ستمائة أوقية** أعطاها لي شخص يدعى ***ما صمبه ولد السالم***. الذي تعرفتُ عليه حين كان يعمل في فرقة الدرك بالمجربة. حيث وجدته بالصدفة أمام أحد المصارف. فطلب مني أن أنتظره وحين خرج أعطاني هذا المبلغ من تلقاء نفسه. فذهبتُ إلى الأخ ***إبراهيم*** وأخبرتُهُ بالأمر وطلبتُ منه أن يصبر عليّ حتى أدبرَ له بقية المبلغ فقبل ذلك مشكورا. ولسوء الحظ بقي هذ المبلغ في ذمتي لعشرين عاما بعد ذلك. (راجع مذكرات دبلوماسي).

وفي العام 1981 وجدتُ عملا في المكتب الوطني للإحصاء ضمن عملية إحصاء جزئية لسكان مدينة نواكشوط. فقيل لي إن مدة العمل شهر واحد. والراتب **اثنا عشر ألف أوقية**. وقد انتهت هذه العملية خلال **سبعة عشر** يوما. وبدوره اقتصر الراتب على **إحدى عشر ألفا**. ويعود الفضل في حصولي على هذا العمل لأخي وصديقي العزيز ***محمد يحيى ولد امينوه***. الذي كان مسؤولا نافذا في مكتب الإحصاء آنذاك.

ويتألف فريق الإحصاء الذي كنتُ سائقه من **ستة** عناصر: ثلاث سيدات ورجلين. بالإضافة إليّ. ولدينا سيارة من نوع "**Land Rover Station Wagon**" فكنتُ أصحو مبكرا وآخذ عناصر الفرقة كل من منزله ثم نتوجه إلى رئيس الفرقة وهكذا كل يوم. ومن حسن الحظ كانت منازل الجميع متقاربة؛ وحين نصل إلى المكان المحدد نختار نقطة التقاء. حسب مخطط المنطقة. وعادة ما تكون تلك النقطة شجرة. هي محل استراحتنا أثناء الدوام ومحل انطلاقنا أيضا في نهايته.

وعندما نصل إلى تلك النقطة يذهب كل واحد من الفرقة إلى منطقة عمله مشيا على الأقدام. بينما أبقى أنا تحت الشجرة. لدي "**مُبَجُّو**" أبسطه وأتمدد عليه. وعندي دائما إما كتاب أقرأه أو جريدة. ولم أكن أتحدثُ كثيرا مع أي من أعضاء الفريق. وكان هذا الأمر يثير حفيظة إحدى سيدات الفرقة. تقول لي: "أنت لماذا لا تتحدث معنا؟ ترانا أقل شأنا منك؟ هذا شكل غريب من العنصرية". والحقيقة بعيدة جدا مما تراه تلك السيدة. فببساطة أنا لا أعرف الفرنسية وهم لا يعرفون الحسانية. أو لا يجيدون الكلام بها. ولم يكن أي من الآخرين يعلق على هذا الأمر.

ويقود الفرقة شاب طيب يدعى ***خليل*** ولا أعرف باقي اسمه للأسف. فأثناء عملنا حل عيد الأضحى المبارك. وبالمناسبة منحتنا الإدارة نصف الراتب وعطلة ثلاثة أيام بالإضافة إلى عطلة الأسبوع العادية. وكنتُ أنتظر أن يأمرني بالبقاء معه. في أيام العطلة لمرافقته في مهامه الخاصة. ولكنه بدلا من ذلك أعطاني قسيمة بنزين بقيمة **تسعمائة أوقية** وقال لي: "شكرا جزيلا. نلتقي بداية الأسبوع القادم وكل عام وأنت بخير". (بالفرنسية).

هذه الفرصة شجعتني على البحث عن العمل بشكل أكثر جدية. فذهبتُ إلى السيد عبد القادر بن أحمد. المدير العام للشركة الموريتانية للتأمين وإعادة التأمين "SMAR" وطلبت منه أن يكتتبني سائقا في الشركة. وكان رده سريعا (والله) فطلب مني أن أقدم له طلبا مصحوبا بملف وأن عملية اكتتابي مسألة وقت فقط. وكبادرة حسن نية طلب مني أن أبقى معه. ومنذ ذلك الوقت أصبح يكلفني بمهام متعددة في سيارته الخاصة. وقد استمرت إحدى هذه المهام أكثر من أسبوعين في تكانت. كنتُ فيها مع الأخوين: حافظ ولد اكار وإسلمّ ولد حمود ولد صمباره.

وفي انتظار وفاء "ذَيْدَالِيْ" - هكذا يدلع - بوعده أعلنت الشركة الوطنية للتنمية الزراعية "SONADER" عن مسابقة لاكتتاب عدد من السائقين. وقد شاركت في تلك المسابقة. وكنتُ أعرف أحد المشرفين عليها وهو محمد ولد كريالي، الذي تربطني به علاقة طيبة. وكان يصطحبني إلى منزله كل مساء بعد نهاية الدوام الرسمي أيام المسابقة ويطلب مني مساعدته في ترتيب ملفات المشاركين فيها. وقد أكد لي أني نجحت ووعدني بأنه سوف يختارني من بين الناجحين ولكن هذا لم يحصل في النهاية.

وفي بداية شهر مارس سنة 1982 أخبرني الأخ محمد محمود ولد مُحمد ولد ودادي أن محمد محمود ولد ودادي، السفير الموريتاني في سوريا آنذاك والذي يوجد تلك الأيام في نواكشوط - في إجازة أو في مهمة - يبحث عن سائق لاكتتابه في السفارة الموريتانية بدمشق. فطلبتُ منه أن يساعدني في الاتصال بالسفير. وبعد أيام قليلة أخبرني بأني أستطيع الذهاب إليه للتحدث معه مباشرة. وكنتُ آنذاك أرافق الأخ الشيخ ولد البكاي لتدريبه على قيادة السيارات. فطلبت منه أن يذهب معي إليه: قمنا بزيارته في منزل أحمد ولد أجه بجي (K) وبعد تبادل عبارات السلام المعتادة قال له الشيخ: "سعادة السفير هذا الأخ سيد احمد ولد مُبارك وهو شاب طموح وإرادته قوية ويبحث عن فرصة للدراسة في الخارج ولكن ظروفه المادية تحول دون ذلك. وإذا كنتم تستطيعون مساعدته بإيجاد عمل له في السفارة يعينه على الدراسة فهو يقصدكم بذلك".

أجابه محمد محمود: "ما هو مستواه الثقافي وهل يتقن مهنة معينة". فرد عليه الشيخ: "ليس لديه مستوى ثقافيا محددا فهو يقوم بتثقيف نفسه بنفسه وقد قطع شوطا لا بأس به في هذا الاتجاه وهو مستعد لمواصلة المشوار. وفي نفس الوقت فهو سائق". قال له محمد محمود: "طيب نحن نستطيع مساعدته إذا كان فعلا يرغب في مواصلة الدراسة ولكن عليه أن يعلم أن العمل في الخارج ليس مثل العمل في الداخل".

لم أكن أعرف هذا الرجل الفاضل عن قرب على الرغم من وجود علاقات تاريخية طيبة تربط أسرتي بأسرته. فكنتُ أسمع به فقط. لأنه من أوائل أبناء المنطقة الذين استوطنوا نواكشوط. طلب مني إذن أن أوافيه بملف لإصدار جواز سفر. فتوجهتُ إلى السيد عبد القادر ولد أحمد واستعدتُ منه ملفي وأتيته به وقام هو بباقي الإجراءات بما في ذلك تذكر السفر من نواكشوط إلى دمشق.

نعم قرر محمد محمود أن يأخذني معه إلى سوريا على الرغم من أ أحد الإخوة قد نصحه بعدم فعل ذلك بحجة أني متورط في السياسة وأ "أخباري باسره" كما نقول بالعامية. وقد أسبب له بعض المشاكل في الخارج هذا ما أخبرني به الأستاذ محمد ولد عبدي ولد يقله. ولكنه رفض أن يبوح لي باسم ذلك الشخص.

وبتاريخ 1982/03/21 غادرنا نواكشوط ليلا على متن طائرة تابعة للخطوط الجوية الجزائرية في اتجاه الجزائر العاصمة. وكانت هذه أول مرة أسافر فيها خارج بلادي: وصلنا مطار **هواري بومدين** الدولي صباح اليوم التالي وكان في استقبالنا أحد الدبلوماسيين بالسفارة الموريتانية في الجزائر، أظن أن اسمه ***محمد الأمين ولد كابر***، وكان السفير ـ سندعوه من الآن فصاعدا بلقبه ـ لديه حجز متواصل من الجزائر إلى تونس ومن ثمة إلى طرابلس في ليبيا بينما كان حجزي أنا على لائحة الانتظار.

أخذ الدبلوماسي تذاكرنا وجوازات سفرنا وذهب لإتمام إجراءات مواصلة السفر. وفي النهاية عاد إلينا وقال للسفير إن حجزي لم يؤكد وبالتالي قد لا أتمكن من مواصلة رحلتي التي كانت مبرمجة. قال لي السفير: "سيداحمد أنا مضطر لمواصلة السفر وأنت ستبقى مع ***محمد الأمين*** فهو ما زال يحاول أن يؤكد حجزك أو يجد لك حجزا على رحلة أخرى". وودعني وأعطاني مبلغ مائتي ريال **سعودي**.

وقد بذل ذلك الدبلوماسي ما بوسعه لكنه لم يوفق في تأكيد الحجز على الرحلة التي كان عليها في الانتظار ولم يجد لي حجزا على رحلة أخرى ولذلك اصطحبني إلى منزل محاسب السفارة في الجزائر العاصمة. هذا المحاسب لا أعرف اسمه ولكنه يلقب (**بأبه السكر**).

بقيتُ يوما وليلة في منزله دون أن يكلمني أحد. وبعد الاتصال هاتفيا بالسفير في تونس تقرر أن يقطعوا لي تذكرة من الجزائر إلى تونس للالتحاق به هناك. حيث ما يزال ضيفا على السفير الموريتاني بتونس أنذاك السيد عبد ***القادر ولد ديدي*** على أن يدفع هو ثمن تلك التذكرة لأخ المحاسب الذي يدرس في تونس في ذلك الوقت.

وبعد ظهر يوم 1982/03/23 غادرتُ الجزائر إلى تونس وكان في استقبالي في مطار **قرطاج الدولي** مواطن تونسي يعمل في السفارة الموريتانية بتونس على ما أظن وأخذني في سيارة أجرة إلى منزل السفير قبل أن يعود ويطلب مني أن أعوض له المبلغ الذي يدعي أنه دفعه لسيارة الأجرة.

وبعد يومين غادر السفير إلى طرابلس بليبيا وبقيتُ أنا في منزل السفير بتونس: وأثناء وجودي هناك زارني أحد الإخوة الذي يدرس في تونس وهو ***بابيه ولد أحمد الهادي***. وأخذني إلى الحي الجامعي حيث عشرات الطلاب الموريتانيين ومن بينهم من أعرفه معرفة جيدة. وقد استقبلوني جميعا بفرح كبير.

وأول من التقيتُهُ منهم هو الأخ ***بونه ولد البخاري***، ثم ***سيدي محمد ولد بيه (ديدي)*** الذي سيلعب مستقبلا دورا بارزا في تطور حياتي المهنية، ***وإسلمو ولد اخليفه***، ***ومحمد ولد الطلبه*** إن لم تخني الذاكرة. وقضيتُ أسبوعا ممتعا بين هؤلاء الإخوة على الرغم من تواضع إمكانيات الطلاب زمن الدراسة عموما. فشكرا لهم جميعا.

وفي يوم 1982/03/28 واصلت رحلتي إلى دمشق على الخطوط الجوية التونسية بعد أن تم تغيير خط تذكرتي السابقة مما ترتبت عليه زيادة في ثمنها. ولا أعرف كم بلغت تلك الزيادة فقد تحملها السفير/ ***محمد محمود***. وصلتُ إلى دمشق ـ عاصمة الأمويين التي لم أحلم يوما بزيارتها ولم أكن أعرف عنها الكثير بسبب جهلي لجغرافية الوطن العربي في ذلك الوقت.

هذا الجهل الذي كان بالإمكان تفاديه لو أني وفقت في الالتحاق بالتعليم النظامي كما ذكرت. وصلتُ إذن دمشق مساء نفس اليوم وكان في استقبالي في مطارها الدولي ***محمد ولد زيد*** (سنتعرف عليه لا حقا) والأخ ***بله ولد اجهاه*** الذي كان يدرس في كلية الاقتصاد بدمشق، وتوجهنا إلى منزل السفير حيث الإخوة:

محمد أحمد بن السالك الملقب (ديدي)، وهو محاسب السفارة.
ومحمد ولد مُحمد ولد ودادي، طالب في كلية الطب البشري في دمشق
وعيشة بنت أحمد ولد ودادي، *ابنة عم السفير*، وهي التي كانت تدير شؤون المنزل في غياب حرمه السيدة/ *عيشة بنت اجه ولد بابا* التي كانت في موريتانيا لمواساة أسرتها بعد رحيل والدها *محمد ولد أجه ولد بابا*؛ *وعيشة بنت ودادي* هي أختي من الرضاعة وقد استقبلتني كما لو كنتُ شقيقها وقد وضعتني ـ بحسن استقبالها ـ في ظروف نفسية مرهقة.

وبعد أيام قليلة وصل السفير من ليبيا حيث كان يودع السلطات الليبية، على اثر انتهاء مأموريته هناك. وفي اليوم التالي لوصوله صدر قرار اكتتابي سائقا بالسفارة الموريتانية في دمشق ومن هنا بدأتُ مشواري الذي سيقودني فيما بعد إلى عالم الدبلوماسية.

الفصل الثاني بداية الانطلاقة

من هو السائق؟

السائق عامل بسيط وفي أغلب الأحيان يكون من شرائح المجتمع الضعيفة حيث ينتشر الفقر والجهل والتخلف. ولا يحظى السائق باحترام يذكر في المجتمع الموريتاني. وعمل السائق في البعثات الدبلوماسية ليس مثل عمله في الدوائر الإدارية الأخرى. ولعل هذا ما قصده السفير/ *محمد محمود* في ملاحظته الآنفة الذكر.

فالسائق في البعثة وفي الدوائر العليا للدولة هو من بطانة المسؤولين والقادة الكبار، إذ لا حركة لسفير ولا لوزير ولا مسؤول بدون سائق، حتى رئيس الجمهورية لا بد له من سائق. وكما الملاح يقود الطائرة في الجو والقبطان يقود السفينة في البحر كذلك السائق يقود السيارة على الأرض؛ وتشير بعض الإحصائيات إلى أن أكثر الحوادث خطرا على الحياة البشرية هي حوادث السير. وما من مسؤولية أكبر من المحافظة على سلامة أرواح الناس. ومن هنا تأتي أهمية مهنة قيادة السيارات، وعلى السائق أن يعي ذلك ويعطيه ما يستحقه من اهتمام؛ وفي البعثات الدبلوماسية تكون المسؤولية خطيرة وحساسة حيث أنه في الواقع دبلوماسي.

ولكي يستحق السائق هذه الصفة عليه أن يكون نزيها في معاملاته، مخلصا لعمله، صادقا مع رؤسائه، جاهزا للعمل في أي وقت، حسن الصورة والسلوك، كتوما، لا يصدر عنه أي شيء يتعلق بما يقوم به من مهام مع المسؤول مهما كان عاديا في ظاهره. كما من مصلحته أيضا أن يكون متعلما، لأن التعامل مع الناس يتطلب قدرا كبيرا من اللباقة وحسن المعاملة وهذا لا يمكن اكتسابه إلا عن طريق المعرفة.

لا ريب في أن السائق ـ كغيره من أصحاب المهن المتوسطة ـ يواجه الكثير من المشاكل في حياته المهنية، وقد تبدو هذه المشاكل بسيطة في ظاهرها عند البعض ولكنها عميقة بالنسبة لنفسية السائق. فغالبية المجتمع الموريتاني تعتبر قيادة السيارات عملا مركا. لا تعب فيه. فالسائق في تصورها شخص جالس على كرسي مريح ولا يقوم بمجهود عضلي واضح وبالتالي فلا شيء يمنع من استخدامه في كل مرة وفي أي عمل. ولهذا فهو عرضة لضغط رب العمل ومحيطه، مما يشكل ضغطا نفسيا عليه ثقيلا. بالإضافة إلى انشغال ذهنه الدائم بحالته المادية لتدني دخله.

وقد يكون هذا الوضع من بين الأسباب التي تقف وراء العديد من حوادث السير التي تتسبب في الكثير من الأضرار البشرية والمادية، مما يدعو إلى إعادة النظر في تحسين ظروف السائقين المادية والمعنوية باعتبارهم يلعبون دورا هاما في حياة البشر وسير العمل: والمسؤول الكفء هو الذي يقدر ظروف عماله وخاصة صغارهم ويعمل على تحسينها باستمرار. وأنا أرى أن تدني عطاء هذه الفئة من العمال عموما يعود السبب في معظمه للطريقة التي يعاملهم بها رؤساؤهم. فكما يقول المثل العربي "الفرس من الفارس".

السائق والأسرار الهامة

السائق - بحكم عمله وكونه من البطانة المقربة - يستطيع الاطلاع على الكثير من الأسرار الهامة التي تتعلق أحيانا بالمصالح العليا للدولة خصوصا إذا كان ذكيا ويعرف كيف يحصل على المعلومات دون إثارة الانتباه. فهو موجود أينما وجد المسؤول: في المكتب، في الحفلات، في المؤتمرات، وأحيانا أثناء اللقاءات الرسمية، العادية منها والسرية، وفي المنزل، وحتى في غرفة النوم حيث الأغراض مبعثرة بدون تحفظ. وإذا كانت زوجة السفير هي أقرب الناس إليه وتعرف عنه كل شيء فالسائق هو الآخر يعرف عنه أحيانا أكثر مما تعرفه زوجته.

والحصول على المعلومات أصبح اليوم هدفا من الأهداف الاستراتيجية للدول لحفظ أمنها والذود عن مصالحها. وقد يكون السائق وغيره من بطانة المسؤول مصدرا مهما للحصول على هذه المعلومات، وعليه فمن واجب المسؤول أن يفتح صدره ويتسع لهذه الفئة من المستخدمين، بالتقرب منهم وإعطائهم قدرا أكثر من الاحترام، وسيحصل منهم على كل ما يريده دون الحاجة إلى طلبه.

ولكن للأسف بعضهم لا يهتم كثيرا بهذه الأمور: لا يقدر ظروف عماله، ويتعامل معهم بسلبية تامة، لا يتحدث معهم، ولا يسمح لهم بحضور مجالسه بل وبحوّنهم، وفي بعض الأحيان يجبرهم على أن يكونوا جواسيس على معاونيه من الدبلوماسيين وعلى الطلاب وعلى أفراد الجالية. ظنا منه أن هذا يلبسه عباءة الوقار في أعينهم بينما العكس هو الذي يحصل دائما. صحيح أن صغار العمال في البعثة الدبلوماسية هم شبه خدم للسفير، ولكنهم مع ذلك بشر لهم مشاعرهم وأحاسيسهم كما هو الحال بالنسبة للسفير تماما. وأكثر من ذلك فهم قادرون على أن يجعلوا منه سفيرا ناجحا إذا كانوا مخلصين له، ويستطيعون أن يحولوا نجاحه إلى فشل في حالة العكس: ومن بين السفراء الذين عملت معهم من هو نموذج في احتقار صغار العمال وازدرائهم، وأكثر السفراء ولعا بأخبار الناس وحب التطلع على عوراتهم. (سنطالع ذلك في مقامه).

الفصل الثالث

البعثة الدبلوماسية

البعثة الدبلوماسية هي عبارة عن مملكة صغيرة، ملكها السفير وملكتها زوجته وولي العهد إن صح هذا التعبير هو المحاسب وإذا كان هناك من يلي هؤلاء من حيث الأهمية فهو كاتبة السفير الخاصة وسائقه. أما باقي الموظفين دبلوماسيين كانوا أم فنيين فلا تأثير لهم في سير عملها ومن مصلحتهم أن يحافظوا على علاقات ودية مع صغار العمال، لأن السفير يتحكم في مدى احترامهم لهم، من يحترمه السفير يحترمه العمال ومن لا يحترمه السفير فقد يزدريه العمال.

لا شك أن منصب السفير من أكثر المناصب فخرا في الدولة لما له من أهمية فهو يمثل رئيس الجمهورية ولذلك يتمتع بصلاحيات استثنائية، والأبواب كلها مفتوحة أمامه حيث حل تذلل له جميع الصعاب، والكل مستعد لخدمته حتى ولو لم يكن معنيا بذلك وكأنه يملك عصى سحرية. ولكنه مع ذلك شخص عادي مثله مثل عامة الناس بحاجة إلى مساعدة الجميع ومن مصلحته أن يخلق جوا من الاستقرار في البعثة ويبعث الطمأنينة في نفوس العاملين فيها. وهذا هو الوضع الذي كانت عليه أحوال السفارة عند وصولي.

فكان المحاسب هو الدبلوماسي الوحيد مع السفير آنذاك وكانت تربطني به علاقات منذ الطفولة ولهذا كانت الأبواب أمامي مفتوحة إلى حد كبير. في البداية أقمتُ في منزل السفير وكنتُ أتناول فيه وجبات الطعام اليومية كما هو الحال بالنسبة للمحاسب ولعدد من الطلاب الذين كانوا يدرسون في دمشق آنذاك. وكان عدد العمال الموريتانيون في السفارة قليلا: سائقان وطباخ واحد. وعدد الطلاب آنذاك ما يزال قليلا أيضا ولا توجد جالية موريتانية في سوريا ذلك الوقت.

بدأتُ العمل في هذا الجو المريح براتب قدره **ألف وثمانمائة ليرة سوريه**. ما يعادل **أربعمائة وخمسة وخمسين دولارا بالسعر الرسمي**. أما في السوق الحرة فيعادل **مائة وتسعة وعشرين دولارا**، ولكني كنتُ أتقاضى راتبي بالعملة السوريه.

وكما يقال لكل قادم دهشة فكان عليّ أن أبرهن على كفاءتي في العمل وأن أنال ثقة الجميع. ولم يكن هذا بالأمر الصعب. فمنافسي الوحيد هو/ *محمد ولد زيد*، وكان يعمل مع السفير في طرابلس بليبيا، وفي البداية غار مني قليلا ربما خوفا من أن أحتل مكانه في قلب السفير وحاول أن يشوش عليّ بعض الشيء: أحيانا تصاب السيارة التي أتولى قيادتها بضربة خفيفة أو بنقص في مستوى الزيت أو الماء فيقوم هو بلفت انتباه السفير أو المحاسب إلى ذلك بشكل لا يظهر فيه بمظهر المنافس المكشوف؛ وإلى حد ما فهو محق في ذلك لأن المسؤولية ينبغي أن تكون محددة ولكن مثل هذه الأخطاء البسيطة قد تفوت المسؤول ويتجاوزها الزمن.

وعند وصولي فضل المحاسب التعامل معي بدلا منه فيما يخص مشتريات السفارة وتسديد فواتيرها، والقيام عموما بالمهام التي قد تكون فيها منفعة **(إِلّ اتْوَلّ شِ ظاگو)** وربما يكون هذا أحد أسباب غيرته أيضا: وفي هذه الوضعية حصلت حادثة عادية: كنتُ أتناوب معه على إيصال أبناء السفير إلى المدارس وفي دوري جئت صباحا باكرا إلى منزل السفير والفصل شتاء والبرد شديد في دمشق. وكانت السيارة المخصصة للخدمات العامة وهي سيارة بيجو **504** متعطلة في ذلك اليوم وفي هذه الحالة ينبغي أن نستخدم سيارة أخرى هي سيارة **أبويك** لكنها غير مريحة للاستخدام وزجاج بابها الأمامي اليميني مكسورا أيضا.[4]

---

[4] مرة ذهب بها أحد السائقين ليلا إلى المطار وتعطلت في الطريق فتركها حيث تعطلت. ويبدو أن إحدى دوريات الأمن السورية رصدتها؛ وهي التي كسرت زجاج بابها لمعرفة ما بداخلها.

جئتُ إذن من السفارة حيث أصبحت أسكن وأخذت سيارة السفير الرسمية وأوصلتُ الأطفال إلى مدارسهم وبدلا من أن أضع مفتاح السيارة في المكان المخصص له في غرفة الطباخ أيقظتُ **محمد ولد زيد** الذي يسكن في قبُو منزل السفير وسلمته المفتاح وعدت إلى السفارة مشيا على الأقدام.

ومن سوء حظي كان للسفير في ذلك اليوم موعد خارج السفارة. جاء سائقه الخاص وهو سوري يدعى *أحمد زئبق* لتجهيز السيارة ولكنه لم يجد مفتاحها ولم يجد من يسأله عنه. فقام على عجل بتنظيف سيارة لبويك وكانت وسخة ومظهرها غير لائق. إذا ما قورنت بسيارة المرسيدس التي ما تزال جديدة في ذلك الوقت. وأكثر من ذلك أن سيارة لبويك هذه ليست لها سارية لرفع العلم.

خرج السفير في الوقت المناسب وفوجئ بالسائق وهو يجهز سيارة لبويك فسأله لماذا لم يأخذ المرسيدس؟ فأخبره بأنه لم يجد مفتاحها. وكان الوقت قد ضاق على البحث عنه فذهب إلى موعده وهو في غاية الغضب. وعندما وصل إلى السفارة أمر المحاسب بالتحقيق في هذا الأمر: فاستدعاني الأخير وسألني عن مفتاح السيارة فأطلعتُهُ على ما جرى. وكانت العملية تدور على مرأى ومسمع **محمد ولد زيد** وكأن الأمر لا يعنيه. وحين سأله المحاسب بدوره نفس السؤال أجاب وبأعصاب باردة: "لا أدري أعطاني سيد احمد هذا الصباح ـ وأنا ما زلت نائما ـ شيئا لا أعرف ما هو". ثم ذهب إلى منزله وإذا به يأتينا بالمفتاح.

عندها انكشف الغيب وقام المحاسب بشرح الأمر للسفير واصفا إياهُ بأنه أمر متعمد من **محمد**، القصد منه إحراجي أنا: فاستدعاني السفير بحضور المحاسب وقد خف غضبه. لأنه أدرك أني تصرفت في هذه الحادثة بحسن نية ـ فلم أكن في ذلك الوقت أدرك مدى سلطة السفير ولا مدى احترام التعليمات ـ ولامني لوما كريما. أقول كريما لأنه خال من عبارات التوبيخ واختتم بالقول: "سوف نشتري لك سيارة خاصة بالمهام التي تكلف بها ومن الآن فصاعدا لا تقترب من أي من السيارات الأخرى إلا بأمر".

وكما أشرنا إليه كان **محمد** هو المكلف بشراء بعض متطلبات السفارة. وفي هذه الفترة كانت وارداتها المالية تتأخر كثيرا وفي مثل هذه الحالات يقوم السائق بشراء المواد المطلوبة من نقوده الخاصة ويحتفظ بالفواتير لتسدد له في وقت لاحق. وفي هذا الصدد قال لي المحاسب إن **محمد** كان يتلاعب بالفواتير. وهذا هو الذي جعله (أي المحاسب) يقترح على السفير تكليفي أنا بها بدلا منه على الرغم من أنه كان الأجدر بذلك في حينه؛ وبالمناسبة استدعانا السفير وأمرنا ـ أمام المحاسب ـ بأن لا أحد منا يقوم بأية عملية صرف على حساب السفارة إلا بأمر منه أو من المحاسب. وقد سر الأخير بهذا الأمر لما يحمله من تهميش لدور زميلي.

محمد ولد زيد رجل أنيق المظهر ولديه سيارة فخمة تحمل لوحة دبلوماسية. ولم يكن يطيع أوامر المحاسب كثيرا مما كان يزعج الأخير ولذلك حصل بينهما خلاف واضح على الرغم من عدم الخوض فيه؛ ويبدو أن قربي من المحاسب وتفاهمي معه لعبا دورا في تعميق هذا الخلاف دون قصد طبعا.

وبعد هذه الحادثة حصلت حوادث أخرى، من بينها واحد خطير: فقد أمرتني السيدة حرم السفير بأن أقوم بتدريبها على قيادة السيارات في سيارة البيجو **GL 504** وفي إحدى جولات هذا التدريب تعرضنا لحادث سير كدنا نسقط بسببه من أعلى قمة جبل **قاسيون** المطل على مدينة دمشق. وقد تسبب هذا الحادث في تحطم واجهة السيارة بالكامل. ولم يكن تصرفي في هذه المسألة مسؤولا. فبدلا من التستر عليه بصفتي فردا من أفراد الأسرة قمت بإذاعته أمام الجميع وكأنه نكتة. وعلى إثر ذلك استدعاني السفير ولامني كثيرا. وأمرني بعدم استخدام السيارة خارج أوقات الدوام الرسمي. وعليه توقف التدريب.

هذه الحوادث وغيرها أغضبت مني السفير كثيرا. فلم يعد يكلفني بمهامه الخاصة وأمضى فترة من الزمن لا يكلمني وإذا دخلت على مجلسه وهو يتكلم يسكت. وكأن لسان حاله يقول: ليتني سمعت نصيحة الأخ المذكورة.

وكما يقال "مصائب قوم عند قوم فوائد" بدا **محمد ولد زيد** وكأنه هو الأجدر بثقة السفير. وبدأ يرسل إشارات للمحاسب مفادها أن صاحبه (أي أنا) ليس على المستوى المطلوب ولا مجال لمقارنته به. وأثناء هذه المدة كان يتحدث معي بالفوقية. حين يقول له السفير: "قل لسيد احمد أن يفعل كذا". يبلغني بصيغة الأمر وكأن الأمر صادر منه.

لكن السفير **محمد محمود ولد ودادي** قلبه أبيض فحين عرف أني أخذت الدرس المطلوب أعاد المياه إلى مجاريها الطبيعية: هذا الجو الودي وفر الفرصة السانحة لاستئناف عملية تدريب السيدة حرم السفير على قيادة السيارات والتي توجت بنجاحها في الحصول على شهادة القيادة وبامتياز كما سبقت الإشارة إليه.

وفي هذا الشأن لا بأس في أن نروي قصة فيها شيء من الطرافة: كان الطباخ **بوبكر صمبه صَوَ** يرغب بدوره في الحصول على شهادة قيادة السيارات وهو يعرف المبادئ العامة لقيادة السيارات ولكنه يجهل قانون السير. وقد طلب مني مساعدته في هذا المجال. فحضّرتُ له ملفا وذهبتُ به إلى مصلحة الامتحانات في إدارة المرور السورية: ونحن في الطريق إلى الموقع الذي تجرى فيه الامتحانات قلت له: **صمبه** أنت لا تعرف العربية وسأتولى مهمة الترجمة عنك وحين يسألونك جاوب **بالبولارية** وسأقوم أنا بترجمة ما ستقوله إلى الجواب الصحيح.

وعند وصولنا إلى المكان المحدد قلت للضابط المشرف على الامتحان الشفهي: سيادة الرائد هذا مواطن زنجي ولا يفهم العربية جيدا وأرجو أن تسمحوا لي أترجم لكم أجوبته فوافق الضابط على ذلك. وبدأ في طرح الأسئلة فيرد **صمبه بالبولارية** فأقوم بالترجمة حسب الاتفاق: وفي بعض الأجوبة كاد **صمبه** أن ينفجر من الضحك وقد لاحظ الضابط أن عملية الترجمة هذه ما هي إلا خدعة (**كذبة بيضاء**) ولكنه كان يكتفي بالابتسامة.

نعود إلى موضوعنا. فبالإضافة إلى ما تم ذكره من حوادث هناك أمور أخرى قد يكون لها دور في توتر الجو العام: في هذه الفترة كان السفير مزعجا من المحاسب. فقد صدرت مبالغ كبيرة على غير العادة على أحد خطوط الهاتف الرسمية بالسفارة بسبب مكالمات هاتفية استمرت إحداها ساعتين على هاتف بالعاصمة الفرنسية باريس. وفي هذه الفترة كنا نسكن في مبنى السفارة: المحاسب و**محمد بن زيد** وأنا. وحين صدرت فواتير الخطوط الهاتفية واطلع عليها السفير سأل المحاسب عن منا كان يستخدم الهاتف بهذا الشكل أجابه بأنه لا يعرف. وترك لديه الانطباع بأنه ربما يكون **محمد**.

فسأل السفير كلاً منا على حدة فلم يجد من يعترف بالمسؤولية. فأمر كاتبته أن تتصل بأختها ـ القاطنة في باريس ـ وتعطيها رقم الهاتف الذي كان يتم الاتصال به لمعرفة من هو صاحبه؟ عندها تبين أنه ممثل الشركة الوطنية للمناجم في باريس. والذي كان يتصل به هو المحاسب: غضب السفير من هذا الأمر كثيرا. وأمرني بأن استدعي فنيا لمركزة جميع خطوط الهاتف في مكتبه بحيث يستطيع التحكم فيها كما يشاء. ففعلت ذلك ولكني نسيت خطا هاتفيا في غرفة نوم المحاسب لم أتذكره إلا بعد أيام من نهاية العملية.

فسكتُّ على هذا الأمر مع خوفي الشديد من أن يكتشفه السفير أو غيره أحد به. ولو أن هذا حصل لكان من السهل تأويله على أنه تآمر بيني وبين المحاسب نظرا لعلاقاتنا الخاصة المعروفة لدى الجميع. وعندها لا يمكن تصور مدى رد فعله. وقلت للمحاسب إني استثنيت هاتفه من هذه العملية وطلبت منه أن يحتفظ بذلك لنفسه. وقد شكرني كثيرا على هذا الأمر. خصوصا أنه كان متأثرا جدا بسبب غضب السفير. وفي نفس الوقت الذي كانت فيه علاقاته مع حرمه غير جيدة أيضا. ولا أعرف سبب ذلك: ولكن السفير في النهاية لم يطبق هذا الأمر بالصرامة التي كان يظهرها.

وكنتُ الوحيد الذي تعاطف مع المحاسب في هذه الظروف. وكان علينا أن نستعد من الآن فصاعدا لتناول وجبات الطعام اليومية في المطاعم، على أن ندفع ثمنها بالتناوب. وهذا مكلف بالنسبة لنا خاصة أنا. وبما أن المحاسب أفضل مني إمكانيات فقد اقترح برنامجا يقضي بأن يتحمل هو ثمن وجبتين يوميا وأنا أتحمل واحدة. وكان هذا مقترحا جيدا ومنصفا. ولكن صديقي لم يكن يحمل النقود في جيبه؛ ولحسن الحظ لم يدم هذا الوضع طويلا فقد أنهاه المحاسب بالاعتذار للسفير ولحرمه بناء على اقتراح مني.

وقبل أن نبتعد كثيرا نعود بمزيد من التعليق على مجموعة الطلاب المذكورة: فكان هذا هو الجيل الثاني من الطلاب وقبله قيل لي إن أفرادا قلائل كانوا يدرسون في سوريا في الستينيات والسبعينيات، منهم: **بلّه بن الشيباني ومحمد الأمين بن يحيى**.

أما جيل الثمانينيات موضوع حديثنا فكان أكثر عددا وكان جيلا خَبويا. أذكر منه: ***ازيد بيه ولد محمد محمود، ومحمد ولد بو اعليبه، وسيد احمد ولد ختار وبشير ولد أونن***. بالإضافة إلى ***بلّه ولد أجهاه ومحمد وأحمد ابنا ودادي***. هؤلاء كانوا على صلة دائمة بالسفير. وكان يدعوهم في المناسبات الوطنية لتناول وجبة الغداء أو العشاء في منزله وبطلعهم - بالمناسبة - على أوضاع الوطن ويناقش معهم بشأنها.

وفي التسعينيات توافدت أعداد كبيرة من الطلاب على الجامعات والمعاهد العليا في سوريا، ومن بين هؤلاء الطلاب متدربون من الموظفين الكبار ومن الضباط العسكريين. أذكر منهم أخي وصديقي العزيز **محمد يحيى ولد امينوه**، الذي كان يدرس تخصصا في مجال الإحصاء بالإضافة إلى ***أعمر ولد بوحبيني ومحمد محمود ولد باها*** والسيدة ***مريم بنت بيروك*** الذين كانوا يدرسون في مجال الصحافة. ومن العسكريين: **العقيد محمد بن محمد صالح والذهبي بن جعفر وعبد الله بن جدو ومحمد الأمين بن أحمد اعلي** وغيرهم في سوريا والأردن. وكان لي الشرف بأن كونتُ علاقات طيبة مع جمهورهم، بما أزعج بعض السفراء (سنعود لهذا الموضوع بإذن الله).

وأثناء وجود أخي **محمد يحيى** في دمشق زارته زوجته السيدة ***الناجية بنت محمد أبات*** وكانت زيارتها فرصة له طلب فيها من السفير أن يمنحه سيارة وسائقا للذهاب إلى السعودية لأداء العمرة في شهر رمضان من العام 1985 (سنعود أيضا لهذا الموضوع بحول الله).

وكان السفير **محمد محمود بن ودادي** يعاملني كما لو كنتُ دبلوماسيا. ويكلفني بمهام تتعلق بتمثيل الدولة أحيانا. ويصطحبني إلى المؤتمرات الدولية؛ وفي هذا الإطار أوفدني لتمثيل موريتانيا مع ابنيه في تظاهرة ثقافية ينظمها الأردن كل سنة وترعاها حرم الملك، **الملكة نور الحسين** تعرف "**بالثقافة العربية المشتركة**" وهي عبارة عن دعوة أربعة أطفال ومشرف أو مشرفة عليهم من كل دولة عربية لقضاء أسبوعين في الأراضي الأردنية للتعرف على عادات الأردن وتقاليده ومعالمه التاريخية. وفي نفس الوقت يتعرف أطفال العرب على عادات وتقاليد مجتمعاتهم في كل أنحاء الوطن العربي.

وكانت موريتانيا البلد الوحيد من بين البلدان العربية الذي لم يشارك في هذه التظاهرة منذ دورتها الأولى. قال لي السفير إن مدير الديوان الملكي الأردني آنذاك أبلغه أن **الملكة نور** غير راضية عن عدم مشاركة موريتانيا في فعاليات هذا البرنامج. وطلب منه بذل ما بوسعه من أجل مشاركتها فيه ذلك العام.

وبعد وصول الدعوة إلى السفارة في دمشق اتصل السفير بالسلطات المختصة في نواكشوط وأقنعها بضرورة إرسال وفد لهذه الغاية. وقد تلقى تأكيدا بذلك. وفي آخر لحظة اعتذرت السلطات الموريتانية عن المشاركة. واستجابة لطلب مدير الديوان قرر السفير تشكيل وفد على مستوى السفارة للمشاركة باسم موريتانيا وهكذا أوفدني مع ابنيه: **محمد وعبد الرحمن**. وكانت مشاركتنا ـ على الرغم من عدم التحضير لها بشكل جيد لضيق الوقت ـ ملفتة لانتباه المشاركين. لما تميز بيه هذان الولدان من ذكاء ومعرفة غير عاديين. الشيء الذي لم يكن متوفرا لدى أطفال العرب المشاركين في تلك الدورة.

وكان السفير **محمد محمود** ينصحني دائما بالمحافظة على مظهري العام وعلى الدقة في المواعيد. يقول لي: "سيد احمد الذاكرة لا يمكن الاعتماد عليها. خذ مفكرة صغيرة تستطيع وضعها في جيبك وتعوّد على أن تسجل فيها برنامجك اليومي. وبهذا تضمن عدم نسيان أي شيء منه". كما ظل على الدوام يذكرني بموضوع الدراسة فيقول لي: "سيد احمد لا تنسى الموضوع الذي جئت من أجله إلى هنا. سجل في إحدى المدارس أو المعاهد وسنعطيك الوقت اللازم لمتابعة دراستك". وقد دفعني إصراره على هذا الأمر إلى التسجيل في معهد عال لمختلف المهن المتوسطة "**معهد الجزائري**" وحصلتُ منه على شهادات في: الكهرباء، والطباعة على الآلة الكاتبة وفنون البرقيات (التلكس).

وكان يكلفني بمهام المحاسب حين يكون الأخير غائبا وكذلك ببعض المهام الإدارية الأخرى. وبصحح لي أخطائي بشكل أبوي يجعلني أستطيع الاعتماد على نفسي في المستقبل. كما كان يدعوني لحضور بعض مقابلاته مع كبار الشخصيات السورية وغيرها من البلدان الأخرى ويقدمني إليها بصفتي موظفا إداريا بالسفارة؛ وكان قد مهد لهذا الأمر بفترة قبل ذلك حين أمر كاتبته بأن تشطب على صفة (سائق) المسجلة في جواز سفري وتكتب بدلا منها (موظف إداري).

وبفضل هذا النهج تعرفت على العديد من الشخصيات السورية النافذة ومع مرور الزمن كونتُ مع بعضها علاقات جيدة استفادت منها السفارة بعد ذلك كثيرا. في تسهيل مهامها في مختلف الدوائر السورية: ففي مجال التعليم العالي كنتُ أشرف على تسجيل الطلاب في الجامعات والمعاهد العليا. وأحوّلهم من جامعة إلى أخرى ومن اختصاص لآخر. كما كنتُ أسجل بعضهم بملفات ناقصة. ما يعرف آنذاك في سوريا (**بالتسجيل الشرطي**).[5]

وفي مجال الخدمات الأخرى كنتُ أحصل من شركات الطيران على التخفيضات اللازمة والحجوزات المطلوبة في الأوقات الصعبة. لأعضاء البعثة وللوفود الرسمية الموريتانية التي تزور سوريا أو تمر بأراضيها. وكذلك للطلاب الذين وصلت أعدادهم فيما بعد إلى المئات. كما لو أنه كان يحضرني لما وصلت إليه فيما بعد من نجاح ـ لله الحمد ـ في ولوج عالم الدبلوماسية.

وهو الذي زرع في ذهني هذه الفكرة الطموحة كما ذكرنا. حين قال لي: "سيد احمد أنت تستطيع أن تصبح دبلوماسيا إذا واصلت بذل المزيد من الجهود؛ ويستطيع محمد/**أحمد** مساعدتك في هذا الأمر". (يقصد المحاسب) الذي كان حاضرا. باعتباره صديقي ولديه أقارب لهم نفوذ في الدولة في ذلك الوقت. ولكن الأخير نفى نفيا قاطعا إمكانية تحقيق هذا الأمر.

---

[5] كانت السلطات السورية تتساهل مع طلاب العرب، فتقبل دخولهم الكليات والمعاهد العليا بدون شهادة البكلوريا، على أن يحصلوا عليها أثناء دراستهم الجامعية، ثم يلحقونها بملفاتهم كشرط لاستلام الشهادة الجامعية عند التخرج.

قد يرى البعض تكبرا في نفس السفير ***محمد محمود ولد ودادي*** أو قسوة في تعامله مع الآخرين. لكن الحقيقة عكس ذلك تماما فهو حنون ورقيق جدا: مرة أصبتُ بمرض خطير بشكل مفاجئ وأمضيتُ يومين وأنا أعاني من آلام شديدة في الرأس وتصلب قوي في الرقبة، وتصادف ذلك مع عطلة الأسبوع. وفي الليلة الثانية لاحظ عدم حركتي في المنزل فسأل عني فقيل له إني مريض. وكان ذلك في وقت متأخر من الليل فزارني حيث أرقد ووجدني في صورة شديدة من الألم. فذهب بنفسه إلى طبيب يعرفه[6] وأتى به بعد منتصف الليل. وحين كشف عليّ الطبيب أمر بأن أنقل فورا إلى المستشفى.

وقد أشرف بنفسه على علاجي الذي تطلب تدخل أطباء أساتذة كبار ما كانوا ليهتموا بمرضي لو لا تدخله بصفته سفيرا[7].2 وبقيت في المستشفى **ثمانية عشرة يوما** منها أسبوع في العناية المركزة. وكان يزورني في كل يوم وأحيانا مرتين في اليوم. على الرغم من أن الأطباء نصحوه في البداية بعدم الاقتراب مني خوفا من أن يكون مرضي معديا. وقد تحمل تكاليف علاجي كاملة.

وخلافا لسلوك بعض السفراء ـ الذين تعرفتُ عليهم بعده ـ كان رحيما بصغار العمال: فيصدر إليهم الأوامر هكذا: "فلان إذا لم يكن لديك عمل ولست تعبانا افعل كذا". متمثلا بذلك مقولة **(إذا أردت أن تطاع أومر بما يستطاع)**. ولم يكن يقبل بأن يوقظ العامل من نومه إلا في حالة الضرورة القصوى. وكان يناقش العمال في الأمور التي تدخل في إطار عملهم أو لها علاقة به ويأخذ آرائهم في ذلك. وبهذا يجعلهم يشعرون بأن آراءهم مهمة وأنه يريد أن يرفع من شأنهم بدلا من أن يجعلهم يشعرون بالمذلة. ولا يعني ذلك أنه سيأخذ بآرائهم في كل شيء. فيختتم كلامه دائما بعبارة مهمة هي التي تعني الأمر النهائي: "أظن أنه من الأفضل أن نفعل كذا".

---

[6] اسمه عبد الملك الكزبري، أصبح طبيبي الخاص فيما بعد في اختصاصه.
[7] أحدهم يدعى: جمال حمزة.

ولن يسألك السفير محمد **محمود** عن أي شيء خارج عملك. وإذا أخبرته به وجدك يصغي إليك جيدا ويترك لديك الانطباع بأنه يسمعه لأول مرة، ويرد عليك بعبارته المشهورة (زين). وهو رحيم بضعفاء المهاجرين الموريتانيين: مرة أبلغت السفارة من قبل مفوضية مطار دمشق الدولي بوجود مواطن موريتاني موقوف في المطار فبعث إليه ***محمد ولد زيد*** لمعرفة أسباب توقيفه وكان ذلك يوم عطلة الأسبوع. وعند عودته أخبره بأن السلطات المختصة تطلب تزويد هذا المواطن بجواز سفر صالح للاستخدام أو ستكون مضطرة لإرجاعه من حيث أتى.

فلم يرض بهذا الجواب. فأمرني بالذهاب إلى المطار للحصول على المزيد من المعلومات. وحين قابلتُ مفوض شرطة المطار كرر لي ما قال ***محمد*** وأضاف: "نحن لا نرغب في تسفير أي مواطن عربي من سوريا خاصة إذا كان من القطر الموريتاني الشقيق وفي نفس الوقت لا نستطيع السماح له بالدخول دون جواز سفر ساري الصلاحية. خذ جواز سفره وحاولوا تمديده على مستوى السفارة وعندها مرحبا به في سوريا".

عدتُ وأبلغتُ السفير بهذا الأمر وكان في استراحة بعد تناول وجبة الغداء ومعه المحاسب وهو المكلف بالشؤون القنصلية وحين تصفح الجواز تبين أنه منتهي الصلاحية منذ أزيد على ست سنوات، وسبق أن مدد التمديد المسموح به قانونيا. وكان هذا المواطن قد وصل المطار على الخطوط السوفيتية قادما من إحدى الدول الإفريقية. التفت السفير إلى المحاسب ـ وهو معاونه الوحيد ـ وسأله عن ماذا يمكن أن يساعد به ؟ قال الأخير إن مساعدته من الناحية القانونية مستحيلة وأن الحل الوحيد هو تسفيره إلى موريتانيا.

وبعد لحظات من الصمت تدخلتُ وقلتُ للسفير إني أستطيع تفكيك الجواز وسحب الصفحة التي تحمل التمديد القديم وبالتالي نضع محلها صفحة من جوازات سفر قديمة موجودة في السفارة قابلة للتمديد. فلم يتردد في الموافقة على هذا الاقتراح. ذهبتُ إلى السفارة وكان الأمر سهلا. لأن صفحات جوازات السفر الموريتانية القديمة محبوكة من الكعب بخيط عاد من القطن ومن السهل فكه وإعادة حبكه. وفي أقل من ساعتين عدتُ بالجواز جاهزا للتوقيع فوقعه السفير على الرغم من رأي معاونه.

عدتُ إلى المطار واصطحبتُ المواطن إلى منزل السفير. فاستمع منه الأخير إلى قصته التي تتلخص في رغبة واحدة، ألا وهي الحصول على تأشيرة دخول إلى الأراضي السعودية. فأمرني السفير بأن أبقيه في المنزل حتى يتناول وجبة العشاء ومن ثم أخذه إلى الفندق على حساب السفير؛ وفي الصباح اتصل السفير بنظيره السعودي وطلب منه تأشيرة دخول له إلى الأراضي السعودية. وفي ظرف أيام قليلة حصل هذا المواطن على تأشيرة عمل في السعودية؛ وأكثر من ذلك أمرني بأن أقطع له تذكرة سفر بالطائرة من دمشق إلى المدينة المنورة على حسابه أيضا. وحجزتُ له على الخطوط السعودية مقعدا. لأن تحقيق السلطات السعودية مع الركاب القادمين على متن خطوطها أقل تعقيدا من غيرها.

وكنتُ بأمر منه آتي بهذا المواطن كل يوم إلى منزل السفير لتناول وجبتي الغداء والعشاء ثم أعيده إلى الفندق؛ وفي الليلة الأخيرة وحن نستعد لتناول وجبة العشاء أبلغه السفير بأن جواز سفره قد مدد لثلاث سنوات وبأنه حصل أيضا على تأشيرة عمل في السعودية، وعليه أن يستعد للسفر في الغد إذا لم تكن لديه مهمة خاصة في دمشق. فلم يستطع هذا المواطن السيطرة على مشاعره فسالت دموعه من شدة الفرح وأعرب للسفير عن عميق شكره وامتنانه.

وعندما ذهبتُ إليه في الغد لأسدد عنه أجور الفندق المستحقة عن إقامته ـ التي امتدت لأكثر من أسبوع تقريبا ـ فإذا به يفاجئني بأن لديه مبالغ من النقود مهمة: منها **ستمائة دينار كويتي** والباقي من **الليرة** السورية. قال لي: "أنا لدي بعض النقود خذها وسدد منها أجور الفندق والباقي أقطع لي به التذكرة". فسألته من أين حصل على هذه النقود؟ قال لي بأن مبلغ **الدينار** أعطته له سيدة كويتية أثناء وجوده في المطار، أما المبالغ الذي بالليرة السورية فقد حصل عليها من المصلين رواد "الجامع الأموي" القريب من الفندق الذي كان يقيم فيه فأخبرت السفير بهذا الأمر فضحك وقال لي: "لا تأخذ منه شيئا اتركه يذهب بما عنده".

وبعد هذا وصل مواطن آخر إلى منزل السفير. وكان حاله يكفي عن سؤاله. فأمرني السفير بأن أذهب به إلى فندق على حسابه (أي حساب السفير) بعد أن يتناول وجبة العشاء. وبعد منتصف الليل اتصل بنا أصحاب الفندق وقالوا لنا إنه يريد أن يأتيه أحد منا فذهبتُ إليه وحين وصلتُ قال لي إنه لا يستطيع النوم وحده ويخاف من أن ينام معه أحد لا يعرفه وقد أخفى ذلك عن أصحاب الفندق. فأبلغتُ السفير هاتفيا بهذا فأمرني بأن آتي به إلى المنزل حيث أقام حتى سافر.

وهناك حالات عديدة مشابهة كان السفير **محمد محمود** يقوم بها في السر. فقد بعث معي أكثر من مرة مساعدات نقدية لأناس محتاجين في موريتانيا، ولآخرين كانوا يمرون في وقت معين بظروف خاصة.

وبفضل علاقاته مع رؤساء البعثات الدبلوماسية وخاصة السفير السعودي والإماراتي، والقنصل العام السعودي السيد ***مسفر الغامدي*** (أبو فيصل) كنا نحصل على تأشيرات الدخول للمواطنين الموريتانيين الراغبين في زيارة السعودية ودولة الإمارات العربية المتحدة ـ وما أكثرهم ـ حتى بعد مغادرته سوريا بفترة طويلة.

مرة كنتُ في القنصلية السعودية بدمشق في إحدى هذه المهام. وأثناء القيام بالإجراءات المعهودة حصل خلاف بيني وبين الموظف المختص (مواطن باكستاني) فغضبتُ منه بعض الشيء. وقد ارتفع قليلا صوتنا فخرج القنصل من مكتبه لمعرفة ما يجري وهو يعرفني، معرفة جيدة. وعندما اطلع على الأمر دعاني إلى مكتبه وهدأني بعبارات طيبة وطلب مني الجلوس معه حتى تنتهي إجراءات التأشيرة.

وأثناء ذلك قال لي: "أين **أبو محمد**؟ (*يقصد السفير محمد محمود ولد وديدي*). ويتابع: إنه رجل فريد من نوعه وينبغي على موريتانيا أن تضعه على ورق (**Stencil**) وتسحب منه جميع سفرائها في الخارج". وكان معه في مكتبه ضباط سوريون كبار. فأثار كلامه فضولهم لمعرفة من هو **أبو محمد** *هذا*؟.

لم يكن وضعي المادي في عهده جيدا. إذا ما استثنينا مساعدة منحها لي مرة: كنتُ أستعد للسفر إلى موريتانيا في العطلة فطلبتُ من المحاسب التدخل لديه من أجل منحي مساعدة مالية من حساب السفارة بالسعر الرسمي. وهذا النوع من المساعدات يمنح عادة في البعثة لمن يحظى برضى السفير: ومنذ بدأتُ العمل كان المحاسب يردد أمامي دائما بأن أمور السفارة المالية من اختصاصه ولا أحد يستطيع أن يتخذ فيها قرارا دون موافقته وقد أقنعني بهذا الأمر. وهذا هو الذي جعلني أطلب المساعدة منه وليس من السفير: وقد يكون ما كان المحاسب يردده صحيحا إلى حد ما ولكنه يبالغ فيه.

وحين اطلعتُ أكثر على أمور البعثات الدبلوماسية بعد ذلك عرفت أن حقيقتها هي التي كان يردد السفير *محمد فاضل ولد الداه*: "لا أحد ينفع أو يضر في السفارة سوى السفير". وللأمانة حين شكرتُ السفير على هذه المساعدة (السلفة) قال لي: "عليك أن تشكر المحاسب أيضا". وقد بلغت هذه المساعدة: **أربعة آلاف دولار**).

وبعد سنة استفدتُ من زيادة في الراتب قدرها: **مائة وخمسون ليرة سورية** حيث وصل راتبي إلى **ألف وتسعمائة وخمسين ليرة سورية**؛ وكنتُ أستفيد في آخر كل سنة من بعض التعويضات البسيطة. مثل ما يعرف بتعويض الساعات الإضافية. وثمن ملابس تمنح عادة مرتين في السنة لمثلي من العمال. ولم تتجاوز هذه التعويضات كلها **إحدى عشرة ألف ليرة سورية** على مدى السنوات 1982- 1985 بالإضافة إلى مبالغ رمزية مقابل مهام السفر.

وكانت الجهة التي نسافر إليها باستمرار هي الأردن. وفي حالة السفر تمنح السفارة للسائق مبلغ **مائة ليرة سورية** إذا كانت مهمته لا تتطلب المبيت وفي حالة العكس يمنح **مائتي ليرة** في اليوم. ومنذ بداية العام **1985** وحتى الربع الأخير من العام **1986** لم استفد من أي تعويض عن مهام السفر. فكان المحاسب يقول لي في كل مرة أن أصرف على نفسي وأنه سوف يعوضني ذلك فيما بعد ولكن هذا لم يحصل.

وعلى ذكر الأسفار نعود إلى قصة سفري مع أخي **محمد يحيى** في العمرة. غادرنا دمشق في حدود الساعة الحادية عشرة صباحا في سيارة ميتسوبيشي باجيرو. هيئة دبلوماسية رقم: **7/151** وعبرنا الأراضي الأردنية من الشمال إلى الجنوب بقية ذلك اليوم. حيث وصلنا الحدود السعودية بعد حلول وقت الإفطار بقليل. وكنا قد أفطرنا على تمرات وجرعات من الماء وصلينا المغرب قبل الحدود بقليل؛ وبعد أن انتهينا من إجراءات الدخول تناولنا طعام الإفطار كاملا في أحد المطاعم في مركز الحدود.

وتبلغ المسافة بين دمشق والمدينة المنورة حوالي **الف وأربعمائة** كيلو مترا. وطيلة هذه المسافة الطويلة كانت **الأخت الناجية** تسألني دائما وتجادلني في أمور شتى. وكدتُ أنزعج من هذا الأمر قبل أن أنتبه إلى أنها كانت تفعل ذلك قصدا خوفا من أن أنام وأنا أقود السيارة. وهي بالفعل محقة فيما كانت تقوم به. لأني في بعض الأحيان كنتُ أنام وعيناي مفتوحتان من شدة التعب.

وهنا أنتهز الفرصة لأقول لمستخدمي السائقين إن السائق من الناحية النفسية لا يمكن أن يعترف بالتعب أثناء القيادة. لأن ذلك معناه العجز والاعتراف به هو انتحار مهني بالنسبة له. ولذلك أنصح السائقين أولا ثم من يستخدمونهم بالتعود على التوقف للاستراحة بعد قطع مسافة كل **مائتي كيلو متر** من السير المتواصل حتى ولو لم يكن هناك شعور بالتعب؛ وألفت انتباههم إلى أن **النعاس** لا يصيب السائق فجأة. فعندما تراه يداعب مؤخرة رأسه ويلتفت يمينا وشمالا فاعلم أن النعاس بدأ يؤثر على منظومته العصبية. أما حين يبدأ في التثاؤب فتأكد أنه أشرف على النوم.

وبعد تناول الإفطار في مركز الحدود واصلنا سفرنا ليلا خوفا من حرارة الجو في النهار. وفي الصباح وصلنا إلى المدينة المنورة ونزلنا ضيوفا على السيد ***اليمون ولد مّينوه***، الأخ الأكبر ***لمحمد يحيى***؛ وفي اليوم التالي توجهنا إلى مكة المكرمة في سيارة ***اليمون*** الخاصة يقودها ابنه ***أحمد***، وذلك لأداء العمرة. وقد رافقتنا سيدة تدعى ***تمه بنت عابد ربه*** كانت ضيفة قبلنا على نفس الأسرة على ما أظن. وقد قطعنا مسافة الطريق بين المدينة ومكة والتي تبلغ حوالي **ثمانمائة كيلو متر** ذهابا وإيابا دون تعب يذكر بفضل ما أخفتنا به تلك السيدة من مرح حتى (أثناء الأشواط بين (**الصفا والمروة**).

وفي موسم الحج الموالي كانت لنا رحلة أخرى إلى الديار المقدسة. وهذه المرة مع السيدة ***عيشة***، حرم السفير. ومعنا الدكتور ***محمد ولد ودادي***؛ غادرنا دمشق في حدود الساعة الحادية عشرة صباحا في نفس السيارة. وقد اتبعنا خطة السفر الآنفة الذكر. وفي اليوم التالي وصلنا المدينة المنورة ونزلنا ضيوفا أيضا على نفس الأسرة؛ وأمضينا أياما هناك قبل التوجه إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج. وكانت رحلتنا هذه المرة أطول من سابقتها؛ وكما صحبتنا في العمرة السيدة ***عابد ربه*** رافقتنا في الحج ثلاث سيدات أخريات هن: ***سلّم بنت مُحمد بن سيد ألين***، والدة الدكتور ***محمد ولد ودادي***، ***وعيشة بنت اجّيوب***، عقيلة ***سيداحمد ولد اللهاه*** ووالدتها.

وفي نوفمبر من العام 1985 ذهب السفير **محمد محمود** في إجازة إلى موريتانيا وهناك تم تعيينه وزيرا للثقافة والإعلام والبريد والمواصلات. ليعود بعد ذلك إلى دمشق لتوديع السلطات السورية؛ هذه السلطات التي كانت تكن له احتراما خاصا. أتذكر أنه كان حين يزوره أحد الضيوف الموريتانيين يأخذه يوم عطلته الأسبوع في نزهة إلى ضواحي مدينة دمشق؛ وكنا نمارس في هذه الطلعات هواية الرماية التقليدية (**شاره**) وفي إحداها وكانت على شرف ***هيبتنا ولد سيدي هيبه***، رئيس جامعة نواكشوط آنذاك ومعنا الفنان الكبير ***سيداتي ولد آبه***.

ويبدو أن المكان الذي وقع عليه اختيارنا للراحة كان قريبا من ثكنة عسكرية سورية دون أن ننتبه لذلك. وأثناء ممارستنا للرماية زارنا أحد الضباط العاملين في تلك الثكنة وعندما تعرف علينا رحب بنا ولم يعترض على ما كنا نقوم به. على الرغم من خطورة استخدام السلاح في سوريا دون إذن.

وكانت ممارستنا للرماية في تلك النزهة فيها شكل من أشكال المنافسة غير المعلن. وقد بدأنا الرماية ***بهيبتنا*** بوصفه ضيف الشرف. لكن خبرته فيها كانت متواضعة. فلم يُصب أيا من الأهداف المحددة ولم يقترب حتى منها. وكان هذا محل تعليقات ***سيداتي*** المتهكمة: "**وَيْلٌ مُحافظ حلب أراهُ مات**". و تبعد مدينة حلب من المكان الذي نحن فيه أزيد على ثلاثمائة كيلو متر. وقد انزعج ***هيبتنا*** من هذه التعليقات بشكل واضح مما استدعى تدخل السفير فقام بتلطيف الجو بينهما وأوقف عملية الرماية.

وعلى ذكره فقد أعرب الفنان ***سيداتي*** ـ أثناء وجوده في دمشق ـ للسفير عن رغبته في لقاء الفنان السوري المشهور **دريد لحام (غوار الطوشه)**. وكان سيداتي ينظر إلى هذا الفنان الكبير على أنه مجرد كوميدي يضحك الناس بحركاته وبسليها فقط. وعندما التقى به تغيرت تلك النظرة تماما. اتصل السفير هاتفيا **بغوار** وقال له: "الأستاذ دريد أنا أريدكم أن تشرفونا في المنزل في الوقت الذي تروونه مناسبا". فرد عليه: "سعادة السفير أنا لا أشرف أحدا بزياتي له. بل أتشرف بزيارة من يرغب في زيارتي في أي وقت".

وتنويها لاحترام السلطات السورية للسفير *محمد محمود ولد ودادي* فقد خصه الرئيس *حافظ الأسد* - بمناسبة انتهاء مأموريته - باستقبال لم يحظ به نظراء له من دول هامة كانوا يستعدون لمغادرة سوريا بعد انتهاء مأمورياتهم في ذلك الوقت. وكذلك حرمه فقد خصتها هي الأخرى حرم الرئيس السوري عند التوديع باستقبال مماثل.

وفي نهاية شهر نوفمبر من العام 1985 غادر السفير *محمد محمود* سوريا بعد سنوات من العطاء الدبلوماسي المتميز، ترك خلالها في نفوس السوريين رصيدا كبيرا من التقدير لموريتانيا وأهلها. وحبذا لو أن هذا الرصيد تم استغلاله من قبل من خلفوه في خدمة وطنهم بدلا من البحث عن المنافع المادية الآنية.

التعامل مع السفير محمد محمود ولد ودادى

التعامل مع السفير *محمد محمود ولد ودادي* له طابع خاص: شخصية رفيعة المستوى، يكاد يكون معصوما. من الصعب أن تلاحظ عليه أي خطأ لا في تصرفاته ولا في سلوكياته. ملتزم، دقيق في مواعيده. كتوم ومسيطر على أعصابه. ويشدك معه في هذا الاتجاه إلى أبعد الحدود. ويكشف لك عيوب الناس طرا من خلال سمو معاملاته؛ حين تعاملت مع الآخرين من بعده كنتُ مثل من وقع من علٍ، على ظهره على "أَدْرَگْ".[8]

كان لي قدوة حسنة، حين ينصحني بشيء أراه يطبقه في نفسه وفي من هم أقرب مني إليه. وقد تعلمتُ منه الكثير الكثير. وباختصار *محمد محمود ولد ودادي* مدرسة ومن لا يتعلم في المدرسة فهو غبي.

[8] أرض صلبة مستوية ، عليها الكثير من صغار الحجر علي شكل حبة الفستق

البعثة في غياب السفير

تعيش البعثة الدبلوماسية في غياب السفير شبه فراغ (فترة انتظار). يديرها فيها قائم بأعمال بالنيابة. عادة ما يكون أعلا الدبلوماسيين رتبة وأقدمهم في الوظيفة. ويختلف القائم بالأعمال من وضعية لأخرى: فهناك القائم بالأعمال الأصلي وهناك القائم بالأعمال بالنيابة. القائم بالأعمال الأصلي يعين بموجب مذكرة عمل ويحمل رسالة من وزير خارجية بلاده إلى وزير خارجية البلد المضيف، وفي هذه الحالة يتمتع بصلاحيات سفير تقريبا. ولكنه مهما طالت فترته يظل مقيدا فكل يوم طالع قد يحمل خبر تعيين سفير جديد.

أما القائم بالأعمال بالنيابة فيحل محل السفير حين يكون غائبا في إجازة قصيرة، وفي هذه الحالة فلا سلطة له ولا يستطيع اتخاذ أي قرار مهم وليست له علاقة بأمور السفارة المالية، وبعض السفراء لا يسمح له بإدارة السفارة من مكتبه، ولا حتى استخدام السيارة الرسمية. ويحتاج في هذه الفترة القصيرة أن تكون علاقاته أصلا طيبة مع صغار الموظفين، وإلا فلن يجد من يعيره أي اعتبار، كما سبقت الإشارة إليه؛ نعم غادر السفير *محمد محمود* وبقيت بعده في حيرة، لا أدري ماذا أفعل، وسندي الوحيد في السفارة هو المحاسب وقد اتضح فيما بعد أنه كان سندا ضعيفا.

وفورا وصل المستشار الأول *محمد المختار ولد إطول عمرو (الملقب بيان)* بصفته قائما بأعمال أصلي وباشر مهام عمله، وقد ظهر في طلته الأولى - أمام عمال السفارة - شخصا عاديا، لا تبدو عليه هيبة المسؤولين الكبار، وبالتالي كان وصوله بالنسبة لهم أمرا عاديا؛ وأول قرار يتخذه هو توقيف السيارات عن العمل خارج أوقات الدوام الرسمي: عند وصوله كنا، *محمد ولد زيد* وأنا كلانا عنده سيارة من سيارات السفارة، وكان هذا الأمر مصدر إزعاج للمحاسب، فيقول في مجالسه الخاصة: "سيارات السفارة تستخدم بدون حدود من قبل السائقين بينما الدبلوماسيون يسيرون على أقدامهم".

منتقدا بذلك السفير **محمد محمود**. علما أنه كان يمنحه صلاحيات واسعة. بموجبها كان يتصرف في السفارة وعمالها وسياراتها كما يشاء، لكنه لم يكن وقتها يتقن قيادة السيارات. أنا هو الذي دربه عليها فيما بعد؛ وفي هذا الشأن قال لي *بتار* إنه يقول إن السفير **محمد محمود** كان يخاف منه لأن قريبا له كان نافذا في السلطة وحين أطيح بالنظام الذي كان نافذا فيه تغيرت معاملته له". وعلى هذه الأوتار وغيرها عزف المحاسب كثيرا وكان ذلك كافيا لدفع القائم بالأعمال لاتخاذ معظم قراراته على حد قناعة زميلي **محمد** *ولد زيد*.

ويقول الأخير أيضا إن قرار ه القاضي بتوقيف السيارات. المستهدف به هو **محمد** وليس أنا وقد يكون هذا صحيحا؛ وفي هذه الظروف تعاطف معي المحاسب بعض الشيء فوضع تحت تصرفي سيارته الخاصة لأكثر من ستة أشهر. وقال **محمد** أيضا إنه فعل ذلك من أجل المحافظة على سيارته وليس بحثا عن مصلحتي أنا.

وبعد هذا القرار اتخذ *بتار* قرارا أكثر أهمية. منح بموجبه للطلاب نصف منحهم بالدولار، وبدا وكأنه يصحح أخطاء السفير **محمد محمود** *ولد ودادي*. وفي هذا الشأن كان يردد دائما أنه كان ينبغي على الأخير أن يذهب بجميع العمال الذين أتى بهم وأن تركه لهم في السفارة خطأ. وجعل من هذا الأمر تندرا. وكان المحاسب يؤيده في هذا الرأي في غيابي أنا و**محمد** ولد زيد؛ ويلتزم الصمت أمامنا.

وقد أزعجني تكراره لهذا الأمر. فقلت له: نحن مواطنون موريتانيون أتى بنا سفير موريتاني ووظفنا في سفارة موريتانية ويستطيع من لا يرغب فينا أن يطردنا منها. ولا داعي لتكرار هذا الأمر في كل مرة؛ وبعد هذا لم يتحدث في هذا الموضوع أمامي. وقد شجعني **محمد** على ما قلت.

ولسوء الحظ تغير السعر الرسمي للدولار في المصارف السورية بعد شهر واحد على نفاذ قراره وأصبح الطالب يتقاضى **خمسين دولارا** بدلا من مائة وثمان وعشرين؛ ويمثل هذا المبلغ نصف منحته البالغة: **ألف ليرة** سورية؛ ولم يقتنع الطلاب بموضوع تغيير السعر هذا، بل اعتبروه حيلة عليهم له المحاسب وأصبحوا يرددون ـ من باب التهكم ـ أن القائم بالأعمال رجل من أهل (الشرْگْ) جاء طيبا وطبيعيا بالفطرة وأن المحاسب علمه الغش".

وبعد فترة على وصول القائم بالأعمال قرر أحد العمال وهو *هابز ولد* *أوبيجن* ـ التحق بالفريق فيما بعد ـ الاستقالة والعودة إلى موريتانيا وكان ذلك في الأسبوع الأول من شهر يناير 1986 وطلب من *بتار* أن يساعده بمنحه راتبه لهذا الشهر كاملا وقد وافق الأخير على هذا الطلب. وبدلا من أن يعطيه من جيبه أو من ميزانية السفارة طلب مني أنا و**محمد** أن نستلفه له وتعهد لنا هو والمحاسب بأن يعطيانه لنا عند دفع الرواتب المقبل. وفي النهاية تنكرا معا لهذا الوعد.

لم أعد أتذكر كم كان راتب *هابز* ولكن نصيبي من هذه السلفة بلغ ستمائة ليرة سورية؛ وقد تركت استقالة *هابز* راحة مكنونة في نفوسنا. **محمد** *ولد زيد وأبوبكر صو* وأنا. لما كان يشكله عددنا من إزعاج للقائم بالأعمال وكذلك لصديقه المحاسب. وفي يونيو من نفس السنة سافر *بتار* في إجازة إلى موريتانيا ومن هناك أخبرنا بتعيين **محمد** *فاضل ولد الداه*. سفيرا لموريتانيا في دمشق. ولم يكن هذا التعيين سارا له ولا للمحاسب؛ وعند عودته أخبرنا *بتار* بأن السفير الجديد طلب منه أن يطرد جميع العمال الموريتانيين من السفارة قبل قدومه وأنه لم يقبل ذلك وطلب منا أن نستعد نفسيا لمثل هذا الإجراء.

الفصل الرابع

وفي يوم 1986/08/15 وصل سعادة السفير الأستاذ ***محمد فاضل ولد الداه***. وقبل وصوله بيوم واحد خرج القائم بالأعمال من منزل السفير حيث كان يسكن - دون اعتبار لوقار ذلك المنزل - وأجر منزلا في حي (دمر) بدمشق وسكن معه فيه المحاسب. الذي كان يسكن هو الآخر في مقر السفارة دون احترام له أيضا. وقد سمعتُ القائم بالأعمال يقول إنه هو الذي يتحمل إيجار هذا المنزل وأن المحاسب يسكن معه فيه مجانا. بينما يقول الأخير إنهما يدفعان الإيجار بالتناصف والله أعلم.

كنا في استقبال السفير وأسرته في المطار وعند بوابة الطائرة استقبله القائم بالأعمال والمحاسب، وكان يحمل في يده حقيبة صغيرة ومن المفروض من الناحية البروتوكولية أن يحملها عنه المحاسب بوصفه الأصغر رتبة ولكنه لم يفعل ذلك - استخفافا به على حد قوله - وكان هذا الأمر واضحا للسفير *محمد فاضل* ولكنه تجاهله تماما. وأثناء سيرهم التحقتُ بهم مسرعا وأخذتُ الحقيبة من يد السفير بكل احترام وتقدير؛ وكانت هذه الحركة البروتوكولية هي أول سهم أصيب به قلبه الذي لم أجد فيه رحمة. وفعلا أثرت فيه تأثيرا بالغا تحدث لي عنه فيما بعد.

لم أكن أنتظر من السفير الجديد خيرا. لما كان القائم بالأعمال والمحاسب يصفانه به من قسوة ووحشية أمامي. خاصة عزمه طرد العمال الموريتانيين من السفارة. ومنذ تعيينه استنفر كل من *بتار* و*ديدي* استعدادا للمواجهة معه ومن هنا جاء استخفاف المحاسب به.

كنا جميعا نتوقع أنه سيباشر مهام عمله في اليوم التالي لوصوله ولكنه لم يفعل ذلك؛ لقد تصادف قدومه مع عطلة طويلة في سوريا لم أعد أتذكر مناسبتها. وبعد استراحة قصيرة في منزل السفير تم خلالها تناول الشاي "أمْلْ لَحْوْ". قال لهما - حين هما بالمغادرة -: "طيب السفارة كانت سفارتكما وستبقى. افعلا ما ترونه مناسبا بخصوص وصولي أنتما أدرى مني بما ينبغي فعله وفي الأسبوع القادم نلتقي بإذن الله".

كان هذا الحديث المتواضع مفاجأة كبيرة لهما. غير موقفهما منه تماما: "هذا رجل طيب ومثقف ومتواضع خلافا لتصورنا عنه". وبعد ذلك بأيام أصبح كل منهما يتقرب إليه على حساب الآخر. ولكن السفير *محمد فاضل* يعرف ماذا يفعل. باشر مهام عمله بعد أسبوع وحين اطلع على أحوال السفارة وما تعاني من مشاكل قرر أن يبعث المستشار *بتار* إلى نواكشوط لحل ما يمكن حله من تلك المشاكل.

وفي التحضير للسفر ذهب الأخير إلى لبنان واشترى منه بندقيتين للصيد (بوفلكه) وفي طريق العودة إلى دمشق اعترضه الجمارك السوريون وصادروا البندقيتين وأوقفوا السيارة الدبلوماسية **تويوتا كرولا** رقم: **6/151** التابعة للسفارة.[9]

عاد *بتار* وهو مرتبك وأخبر السفير بالحادثة. ولم يكن الأخير قد استلم مهامه بشكل رسمي. أي لم يقدم نسخة من أوراق اعتماده لوزير الخارجية السوري بعد. وبالتالي فالأمر لا يهمه إلا بالقدر الذي يستغله به ضد المستشار في الوقت الذي يراه مناسبا. ذهب *بتار* ولم يعد. فقد تم تحويله من دمشق إلى أبدجان بساحل العاج على ما أذكر.

[9] ضاعت بطاقتها الرمادية أثناء هذا التوقيف وأصدرت لها بطاقة أخرى برقمها: 11/151

أول لقاء مع السفير الجديد

استدعاني في المنزل وكان قد استقبل قبلي زميلي **محمد بن زيد**. أمرني بالجلوس وتبادل معي السلام بشكل ودي. وبالمناسبة سألني عن أخبار الأهالي وسلامتهم وعن أخبار **محمد محمود بن ودادي**، ثم عن طبيعة عملي في السفارة: كنتُ أتبادل معه عبارات السلام وأنا في حالة توتر. فكان هذا أول لقاء لي معه وهذا أسلوب جديد علينا، وقد منعني الكبرياء من أن أسأل زميلي **محمد** عنما دار بينهما. قلتُ له: أنا سائق ولكن أقوم في نفس الوقت بالعديد من المهام الأخرى.

رد علي: "مثل ماذا؟". أجبته: كان السفير يكلفني دائما بمتابعة الصحف والمجلات وبعض الأمور الأخرى. ابتسم ابتسامة تخفي وراءها الكثير، وقال لي: "متابعة الصحف والمجلات من عمل السكرتيرات. وأضاف المهم السفارة. فبها الكثير من العمال الذين لا حاجة لها فيهم وكذلك السيارات: السفارة يكفيها سائق واحد وسكرتيرة واحدة وبواب واحد وسيارتان. ولكن لا بأس يبدو أنها سفارة "كِنْتَه"[10] مازحا": موريتانيا بلد فقير وهذه الرواتب التي تصرف كل شهر وثمن هذه السيارات الفخمة أحوج هي إليه في أمور أخرى. ومن هو وطني أو يدعي الوطنية يجب أن يفكر جيدا في هذه الأمور. وما يمكن الاستغناء عنه يستغنى عنه في سبيل مصلحة الوطن.

ويتابع قائلا: على كل حال أنا كنت أعتزم طرد جميع العمال الموريتانيين من السفارة وأكتفي بالحاجة الضرورية فقط. وعندما جئت وجدت العمال هنا أناسا طيبون ومن ليس بمقدوره مساعدتهم عليه أن لا يضرهم على الأقل: فيما يخص العمل واصل عملك ولن يمسك أحد بسوء خاصة أن **محمد محمود ولد ودادي** صديق لي عزيز ويهمني من يهمه أمرهم وأنت يبدو أنك منهم. وفيما يخص السكن في المكاتب فهذا الأمر فيه إحراج لي".

[10] قبيلة مشهورة عند المجتمع الموريتاني بالتفاخر

النقطتُ أنفاسي بعد هذه المحاضرة الطويلة التي لم أكن أعرف أين ستتوقف، وبدا هو أمامي مثالا للوطنية. فشكرته وطلبتُ منه مهلة أسبوع لأبحث عن مكان للسكن وخرجتُ من عنده وأنا مسرور، لأنه لم يتخذ قرارا بفصلي من العمل. ذهبتُ أبحثُ عن مكان للسكن، ولو أن راتبي لا يتحمل مصروفات إضافية؛ وفي نفس اليوم وجدتُ غرفة ضيقة واستأجرتُها بمبلغ: **سبعمائة ليرة سورية** في الشهر وخرجتُ من السفارة في نفس اليوم، ولكني لم أخبره بذلك إلا بعد ثلاثة أيام خوفا من أن يفسر سرعة خروجي على أنها نوع من عدم الرضاء حتى ولو كان الأمر هو بالفعل كذلك.

كان عدد العمال الموريتانيين في السفارة ثلاثة، وهم: **محمد بن زيد**، سائق و**أبوبكر صمبه صو**، طباخ وأنا؛ والعمال السوريون أيضا ثلاثة وهم: **عصام عوض**، سائق و**ميساء خرجي**، كاتبة و**مصطفى علاء الدين**، بواب بالإضافة إلى كاتبة السفير الخاصة وتدعى **ثروت باحوص** (فرنسية الجنسية وجزائرية الأصل). المجموع: سبعة. وبعد وصول السفير **محمد فاضل** أصبحوا تسعة، بزيادة **محمدو دمبا صال**، سائق و**أحميد ولد بولعيال** مكلف ببعض الخدمات المنزلية.

بدأ السفير *فاضل* ـ هكذا تدعوه زوجته ـ يحصر كل شيء بيده وأصدر تعليماته إلى جميع العمال بأن لا أحد منهم يتحرك إلا بأمر منه وأصبحنا نعيش في جو من التوتر، مشحون بالشك وعدم الثقة والمتابعة الدقيقة للأشخاص. وأصبحت السفارة أقرب هي إلى إدارة مخابرات منها إلى بعثة دبلوماسية.

وفي هذا الجو الضبابي استقال أيضا **محمد ولد زيد** وقرر العودة إلى موريتانيا، ولم يتردد السفير في قبول استقالته، وفيما يبدو مكافأة له على ذلك منحه حقوقه كاملة على الرغم من أنه هو المستقيل بإرادته. وقد قال لي محمد إنه قرر الاستقالة عندما تبين له أن العمل مع السفير محمد *فاضل* أمر في غاية الصعوبة.

وباستقالة محمد خلا لي الجو وأصبحت السائق الموريتاني الوحيد في البعثة الذي يتمتع بالخبرة والتجربة المطلوبتين وتصورتُ أن مركزي قد أصبح أقوى من ذي قبل. ولكن لا قوة لأحد في البعثة إذا لم يكن مؤيدا من السفير.

بعد وصوله بأيام ألقى علي سعادته محاضرة طويلة، عن معنى الوطن وصفات المواطن الحقيقي حيث يقول: "في السفارات يمارس بعض الدبلوماسيون أحيانا نشاطات تجارية تمس من سمعة السفارة ومن ثمة سمعة الوطن بشكل عام. وأنا لو كنت أريد الاستفادة على حساب سمعة الوطن لأصبحت غنيا منذ فترة بعيدة. ولكن سمعة الوطن بالنسبة لي فوق كل الاعتبارات: أنا كنت وزيرا للطاقة والمياه وكانت الوزارة تقوم من حين لآخر بالإعلان عن مناقصات لإنجاز بعض المشاريع الوطنية الكبرى. وكان رجال الأعمال أصحاب الشركات المتخصصة، أجانب ووطنيون يأتون إلي بغية فوز شركاتهم بتلك المناقصات، وهم مستعدون لتقديم هدايا بعشرات الملايين من أجل ذلك. ومع هذا كنت أرفض عروضهم حتى ولو كانت هي الأفضل لمجرد أنهم يشيرون إلى الرشوة. علما أن هذا ليس رشوة فمثل هذه الأمور لا يضر ميزانية الدولة لا من قريب ولا من بعيد".

ويتابع قائلا: "المهم إذا طلب منك أي من الدبلوماسيين مهما كان أن تحمل في سيارات السفارة أي نوع من التجارة، حتى ولو كان عودا من كبريت فلا تقبل ذلك أبدا. ولو أمرتك أنا أن تفعل ذلك قل لي لا تنس يا سعادة السفير أنك حذرتني من هذا؛ وعليك أن تدرك أن مثل هذه الأمور لا يمكن أن يخفى علي أبدا. ولا تعتمد على أنك تعرف زيدا أو عمرا لحمايتك من عقوبة مثل هذا التصرف. وفيما يخص العمل عموما عليك أن تعود إلي في كل شيء قبل القيام به".

ويضيف: لا أقول لك هذا من باب الدكتاتورية ولا حبا للسلطة، إنما نحن في الخارج ومن هم في الخارج مثلهم مثل المسافرين، ينبغي أن لا يغيب أحد منهم إلا بعلم الآخرين؛ والعمل بشكل عام لا بد له من النظام وإلا تعم الفوضى كل شيء".

وبعد أن قدم أوراق اعتماده اتضح أن الوطنية التي يتحدث عنها معناها الأنانية والمصلحة الخاصة، وأن المحافظة على النظام معناها الدكتاتورية السلبية، التشدد في محل اللين واللين في محل التشدد، حين تكون أموره الخاصة على ما يرام فكل شيء عادي وبسيط، وعندما تكون عكس ذلك تقوم القيامة لأتفه الأسباب. (ذاب **الثلج وظهر المرج**) كما يقول المثل السوري.

أول ملاحظة يوجهها لي السفير الجديد

بعد وصوله بفترة قصيرة بعثني مع حرمه إلى لبنان واشترت منه جهاز فيديو. وفي حديث عابر مع المحاسب أخبرته بهذا الأمر. وبعد ذلك بأيام استدعاني السفير في مكتبه وألقى عليّ محاضرة طويلة في القيم والأخلاق والمثل الإنسانية أتذكر منها: "أنت رجل عاقل وتتميز عن غيرك بأنك متخرج من مدرسة ***محمد محمود ولد ودادي***، وأنتم أهل تكانت عموما تتصورون أنكم أذكى من غيركم وعلى هذا الأساس أنا فضلتك للذهاب مع *آمنه*. فموضوع الفيديو لم يكن هناك من داع لاطلاع الآخرين عليه". اعتذرتُ له ووعدتُهُ بأن هذا لن يتكرر في المستقبل.

يبدو أن المحاسب في محاولات التودد ـ الفاشلة ـ له أخبره بما قلت له، باعتبار أن حرمه كانت سباقة في هذا المجال. لكن هذا التودد جاء في الوقت الضائع. فالسفير وصل من موريتانيا وهو يحمل عنه انطباعا غير جيد ولذلك كان يتحفظ على كل أقواله وأفعاله.

وشاء القدر أنه اكتشف في أول تدقيق له في أمور السفارة المالية خطأ كبيرا دفعت السفارة ثمنه لفترة طويلة: فمنزل السفير يقع في عمارة من أربعة طوابق. تضم: منزل السفير الموريتاني. ومنزل السفير التركي ومقر السفارة التركية بالإضافة إلى منزل مواطن سوري. وهذه العمارة في الأصل ملوكة لرجل سوري مشهور يدعى *خالد العظم*؛ وكانت اشتراكات العمارة في مؤسستي المياه والكهرباء كلها باسم ذلك الرجل. وفواتير استهلاك جميع سكانها تسلم عند صدورها في كل دورة للسفارة الموريتانية بما في ذلك فواتير استهلاك السفارة التركية ويقوم المحاسب بتسديدها على اعتبار أنها لمنزل السفير.

وقد تزامن وصول السفير محمد *فاضل* مع صدور دفعة من هذه الفواتير وأثناء التدقيق فيها اكتشف أنها مختلفة الأرقام والمبالغ. فسأل المحاسب عن كم من عداد في منزل السفير؟ ولكن الأخير لم يكن يعرف أي شيء عن ذلك. فسألني نفس السؤال فقلتُ له: فيه منزل عداد واحد. قال: "عداد واحد تصدر عليه عدة فواتير في دورة واحدة. هذا غير معقول".

فأعطاني الفواتير وأمرني بالتحقيق في موضوعها. وعندها تبين أن ثلاثا منها تعود لباقي سكان العمارة؛ وحين راجعناهم في هذا الأمر أبدوا جميعا استعدادهم لتعويضنا عن كامل الفترة التي كنا قد دفعناها نيابة عنهم، ولكن المحاسب لم يكن يحتفظ بنسخ من الفواتير القديمة، فكان يرسلها في محاسبته في كل مرة إلى موريتانيا. ولكن السفير لم يقتنع بهذا الأمر بل اعتبره مكيدة يستفيد منها المحاسب ماديا وزاد ذلك من شكوكه فيه، وأصبح يدقق معه في كل شيء، خاصة أن السفارة كانت تستفيد في ذلك الوقت من فرق أسعار العملات في السوق السوداء، ولهذه الغاية كان المحاسب يذهب إلى لبنان لتبديل بعض المبالغ من العملة الصعبة إلى الليرة السورية.

وكانت هذه العملية في مرحلة أولى تتم خفية في دمشق، ثم انتقلت بعد ذلك إلى لبنان بعد أن شددت السلطات السورية المراقبة على مثل هذه النشاطات، مما يوفر للمحاسب فرصة التلاعب بالأسعار كما يشاء. ولمراقبته يعتني السفير معه مرة إلى لبنان في إحدى هذه المهام، وأعطاني مبلغ **مائة دولار** لأبدله له، وهو متأكد من أني لن أخبر به المحاسب نظرا لتجربة **الفيديو**؛ وكان المحاسب بدوره قد أصبح حذرا من السفير، ولهذا أصر على أن يبدل ذلك المبالغ أمامي. وصلنا إلى لبنان وبحثنا عن أفضل سعر فيه ذلك اليوم وقام المحاسب بتبديل المبلغ الذي بحوزته أمامي.

وفي محل آخر بدلتُ المبلغ **مائة دولار** بعيدا عن المحاسب خوفا من أن يخبر السفير بذلك، وبدو أنه كان يتوقع مثل هذا الأمر ولذلك كان يراقبني، ومن سوء الحظ وجدتُ سعرا أفضل (**بعشرة 10 سنتات**)، وحين رجعتُ إليه سألني عن ماذا كنت أفعل وطلب مني بإلحاح أن أخبره بالتفاصيل: "سيد احمد أنت لا تعرف كم هو ماكر هذا الرجل وأنا وأنت إخوة وأصدقاء منذ الطفولة ومن أهل مدينة واحدة ومصالحنا مشتركة، ويجب أن ننسق معا لمواجهة مكره، فإذا كان قد أعطاك مبلغا تبدله له قل لي ذلك وبكم بدلته؟ خوفا من أن يكون هناك فرق في الأسعار ويعتبر هذا..... أني أخدعه".

قلتُ له: أنت تعلم أنك صادق وأنا شاهد على ذلك وهذا أفضل من الكذب؛ وبصراحة أنا لم أعد أثق فيك كلما قلت لك شيئا تقوله للسفير. قال لي: "أعاهدك بأني لن أخبره بأي شيء يجري بيننا من الآن فصاعدا وسأكون إلى جانبك في المستقبل ولا تتركني أواجه موقفا قد يضرني".

كان يتوسل إليّ والدموع تكاد تنهمر من عينيه من شدة التأثر. فقد صعب عليّ أن أتركه في هذه الورطة وأنا واثق من أن السفير حين يعلم بهذا الفرق سيحكم عليه بالخيانة. فأخبرتُهُ بالحقيقة وعند عودتنا قلت للسفير بأننا بدلنا بنفس السعر. وفي طريق العودة سألتُ أحد المحلات وكان سعره أفضل ب "10 سنتات". هذا الفارق يساوي عشر ليرات سورية وهو مبلغ يكفي لشراء حوالي عشرين "بيضة" من النوع الجيد في ذلك الوقت. دخل هذا المبلغ ذمتي ولكني عوضتُهُ له أضعافا فيما بعد من خلال أغراض بسيطة كنتُ أشتريها له من حين لآخر.

في هذه الظروف الصعبة تقدمتُ بطلب للسفير للموافقة على منحي عطلتي الإدارية وكذلك مساعدة مالية انطلاقا من التجربة المذكورة. وقد وجهتُ إليه الطلب عن طريق المحاسب، ولكن صيغة طلبي هذا لم تعجبه ولم يرد عليّ. وفي ليلة كنا في غرفته في فندق (Intercontinental) في عمّان بالأردن حين كان موجودا لتقديم أوراق اعتماده للملك حسين بن طلال. وبعد تناول وجبة العشاء وهو يتابع برنامجا في التلفزيون الأردني وكان يعلق عليه بشكل يوحي بأنه مرتاح وأنا أصنع له الشاي الأخضر، فوجدتُ الفرصة مواتية لتذكيره بموضوع الطلب. قلتُ له: سعادة السفير أنا تقدمتُ إليكم قبل فترة بطلب أريد فيه موافقتكم على منحي إجازتي السنوية وكذلك مساعدة مالية علما أن أحد أفراد أسرتي قد توفي منذ فترة وما زلتُ أنتظر موافقتكم.

أصغى إليّ جيدا حتى أنهيتُ كلامي وبعد ذلك رد عليّ: "العلاقات في العمل تحددها النظم الإدارية من جهة القانون، وتحددها العلاقات الشخصية من جهة أخرى. من جهة القانون أنا هو السفير وانطلاقا من مصلحة العمل أستطيع رفض إجازة أي موظف إذا كانت الإدارة بحاجة لخدماته عند طلبه الإجازة. وأنا ما زلت جديدا على المنطقة ولم أطلع بعد على أمورها بما فيه الكفاية. وأنت والمحاسب طلبتما الإجازة في وقت واحد دون مراعاة لظروف العمل وفي هذه الحالة أنا مسؤول عن مصلحة الإدارة".

ثم تابع يقول: "أما في حالتك أنت الذي لديك عذر إنساني فالقانون يعطيك ثلاثة أيام بشرط أن يكون المتوفى والدك أو والدتك أو زوجتك أو أحد أبنائك وإذا كان الأمر كذلك وتستطيع الذهاب إلى موريتانيا والعودة خلال هذه المدة فأنا مستعد أن أمنحك إجازة ثلاثة أيام فورا. هذا من جهة القانون.

أما من الناحية الشخصية فلابد أن تفهم أن لا أحد ينفع في السفارة أو يضر سوى السفير، ومن يرغب في مساعدة من السفارة عليه أن يكون من بطانته، يساعده ويكون مخلصا له وصادقا معه، ويقوم باستمرار بتزويده بالأخبار. ويكون مرآة له، يظهر محاسنه ويتستر على عيوبه ويدافع عنه في أوساط الدبلوماسيين والطلاب؛ وأنت صيغة طلبك توحي بأنك تفضل أن تكون من بطانة المحاسب. وهذا من حقك وفي هذه الحالة عليك أن تطلب المساعدة منه وليس من السفير؛ ولعلمك الخاص المحاسب لا تهمه مصلحتك بل على العكس من ذلك، حين عرض عليّ طلبك كان يسخر منه أكثر ما كان يدعمه ومع ذلك قلت له بأن يحتفظ به حتى أجد الوقت المناسب للنظر فيه، ثم أن المبلغ الذي طلبت مبلغ كبير جدا يفوق دخلك لعدة سنوات وهذا كثير".

كان واضحا من كلامه أنه يعرف تماما أن الشخص المتوفى ليس من أقاربي القانونيين (**والد خطيبتي**) وأنا واثق أن المحاسب هو الذي أطلعه على تلك التفاصيل. قلتُ له: هذا صحيح يا سعادة السفير. فيما يخص تزامن طلبي للإجازة مع طلب المحاسب فهو مجرد صدفة لا أكثر. وبخصوص صياغة الطلب فكانت لدينا تعليمات من السفير السابق بأن جميع الطلبات الموجهة إليه يجب أن تمر عن طريق المحاسب وكنتُ أظن أن ذلك ما زال معمولا به. أما كون المبلغ كبير فأنا أطمع في كرمكم. وعلى كل حال أعاهدكم أني سأكون رهن إشارتكم في كل شيء.

قال لي: "طيب سوف أنظر في الموضوع حين أنتهي من تقديم أوراق الاعتماد وأتأقلم بعض الشيء مع المنطقة. أما المحاسب "**سيبك منه**" فلا يستطيع فعل أي شيء وليس لديه الاستعداد لفعل المعروف أصلا. فهو مجرد حصالة للقروش".

عدنا إلى دمشق وكل منا يعتقد أنه كسب ثقة الآخر. فهو يعتقد أني سأكون من جواسيسه المخلصين في السفارة. وأنا أتطلع إلى أن يكون هو سفيرا فوق العادة وفوق صغائر الأمور. ولكن الأحداث أثبتت أن كلانا كان على خطئ.

وفي تغييرات في السلك الدبلوماسي لاحقة حوّل المستشار الأول *إبراهيم ولد الشيخ*، محل المستشار الأول *محمد المختار ولد إطول عمرو*. وبدت طلة المستشار *إبراهيم* - بالنسبة لعمال السفارة - أفضل من طلة سلفه. وبعد فترة قصيرة بدأ يرسل إشارات واضحة بعدم رضائه عن سير العمل في السفارة وعن السفير نفسه. وكان ينظر إليه نظرة فيها ما يلاحظ كي لا أقول دونية. أما المحاسب فكان يقول إنه يتنزه عن الحديث عنه.

وعلى الرغم من موقفه من السفير فقد أبدى الأخير قدرا من الاستعداد للتعامل معه بمرونة. في محاولة لتجنب إثارة عصبيته التي كانت واضحة ولكن هذه المحاولة لم تنجح.

ضاق الحال بالجميع بسبب أسلوب العمل الجديد وبدأت الأمور تتعقد شيئا فشيئا. "**أحْنَ أعْل جَالْ وَانْتُومَ أعْل جَالْ تَزَارْكْ بَأعْظَامْ الرّجّالْ**". فالسفير متربع على عرش السفارة. وهذا العرش ليست له أغصان تنحني. ***وإبراهيم*** جالس في عرينه مثل "**الليث**" والليث لا يبتسم ولو بانت نيوبه على حد قول الشاعر. بدأ المحاسب بتكثيف اتصالاته بذويه في موريتانيا بغية التحويل عن دمشق أما أنا فما باليد حيلة.

الفكرة التي نفخت جيوب الرجال

وكما يقال (الحاجة أم الابتكار). كان حساب السفارة في دمشق وكانت السلطات السورية تفرض على البعثات الدبلوماسية نظاما مصرفيا مجحفا: لا تستطيع البعثة الحصول على العملة الصعبة من حسابها إلا بموجب شكات مصرفية مسحوبة على بنوك في الخارج. وحين يسحب هذا الشيك يقوم المحاسب ببيعه في السوق السوداء للحصول على العملة الصعبة نقدا.

وفي مرحلة لاحقة شددت السلطات الرقابة على هذا النوع من الأنشطة وكان البديل. إما لبنان أو الأردن حيث السوق النقدية حرة: فلبنان ليس بعيدا والعملية يمكن أن تتم في أطرافه القريبة من دمشق ولكنه لم يكن آمنا في ذلك الوقت. وبالتالي كان الأردن (عمّان) على الرغم من بعدها نسبيا هي البديل المثالي. ولذا كانت السفارة تسحب هذه الشكات وترسلها إلى عمّان وتستبدلها بالدولار نقدا مع دفع عمولة بسيطة.

وفي مرحلة معينة كانت السفارة تكلفني بهذه المهام وأثناء قيامي بإحداها وبينما أنا أتناول وجبة الإفطار في أحد المطاعم الشعبية بعمّان إذا ببائع متجول يبيع السجائر فسألته – من باب الفضول – عن أسعار بعضها؟ وكان سعر (كروص المارلبورو) الواحد يساوي ستة دنانير أردنية. والدينار الواحد في ذلك الوقت يساوي ثلاثة دولارات أمريكية. ولدى عودتي قلت للمحاسب: الدولارات تَتَطايَرْ أَقْرَكُمْ وانْتومَ كاعْدِينْ حاكمين أيديكم. قال لي: "ذاكْ شِنَهُ معناه"؟. أخبرته بالأمر. فقال لي: "وكيف نستطيع الاستفادة من هذا الأمر"؟. قلت له: عن طريق القنصل الشرفي.

كان هذا كلاما عفويا أقرب عندي للمزاح منه للجدية ولكن المحاسب كان سريعا في استيعاب هذه الفكرة. فقال لي: "اترك الأمر لي وأنا سوف أدبره". قام المحاسب بعرض الموضوع على السفير وكان الأخير على مستوى الحدث. فلم يتردد في الموافقة عليه بشروط بسيطة وميسرة. وهي: أن تكون السيارة المستخدمة في هذا النشاط هي سيارة المحاسب الخاصة. وأن لا يمارس هذا العمل في أوقات الدوام الرسمي. وأن لا يعلم أحد أن للسفير به علاقة.

وبعد هذا الاجتماع – السري للغاية – عاد إليّ المحاسب وقال لي: "سيد احمد نحن سوف نذهب غدا إلى القنصل الشرفي لنبحث معه هذا الأمر". ذهبنا إلى مدينة أربد الأردنية التي تبعد حوالي مائة وعشرين كيلو مترا من دمشق. حيث يسكن القنصل الشرفي لموريتانيا في الأردن آنذاك. السيد علي عبده الحلبي (أبو هشام). سوري الأصل أردني الجنسية. كنا ندعوه باختصار الحلبي.

وحين طرحنا عليه الموضوع بدا غير متحمس له (ربما كان يناور). ولكنه في تلك الفترة كان يطلب من السفارة – بإلحاح – منحه لوحة دبلوماسية لسيارة جديدة له وهو مستعد للتضحية بالكثير من أجلها. ولتجاوز تحفظه هذا وعده المحاسب بأنه سوف يدعم طلبه اللوحة وعندئذ وافق على الفور. واتفقنا على البرنامج وكذلك على السعر: (10 عشرة دولارات للكروص الواحد). عدنا إلى دمشق وأبلغ المحاسب السفير بنجاح المهمة. واتفقنا على بنودها السرية.

ولم يمض وقت طويل حتى تحسنت ظروف الجميع وكذلك تحسنت علاقاتهم. علما أن السفير لم يكن يثق في شريكه: لا يعرف مثلا قدر الكمية التي يحمّل في السيارة، ولا بكم يشتريها. ففي البداية كان يخجل من السؤال عن مثل هذه التفاصيل، ربما كان يطبق المثل القائل: "تَمَسْكَنْ تَمَسْكَنْ حتى تتمكن".

ومع تحسن الظروف وافق السفير على إجازتي وكذلك منحي مساعدة مالية قدرها: **ألفا دولار (سلفة)**. كما وافق أيضا على إجازة المحاسب وأمرنا بالعودة بسرعة. ذهبنا إلى موريتانيا في العطلة ولم نتأخر كما أمر سعادته ولدى عودتنا استأنفنا عملياتنا. وفي إشارة لرضائه عني سمح لي بالعودة للسكن في السفارة.

وبعد ذلك قرر السفير – بدوره – الذهاب إلى موريتانيا. ولذلك استدعاني في المنزل وقال لي: "أنا ذاهب إلى الوطن في عطلة قصيرة وأترك كل شيء تحت رعايتك أنت، وأنت وحدك، السفارة والأسرة وكذلك الموضوع الذي تعرف. أنا لا أثق في **"أفليان"** قد يخدعني – يقصد المحاسب الذي اعتاد على تصغير اسمه في غيابه – وإذا كنت بحاجة لأي شيء في موريتانيا أنا تحت أمرك". شكرته وقلتُ له إني أطمحُ للاكتتاب رسميا في الوزارة وأحتاج لمساعدته في ذلك، أجابني: "إن شاء اللّه سوف أسعى لك في ذلك وأنت فعلا أهلا له".

وفي غيابه تولى المستشار الأول ***إبراهيم ولد الشيخ*** مهمة القائم بالأعمال بالنيابة. والمستشار ***إبراهيم*** في رأي السفير شخص "مجنون" وكما ذكرنا لم يكن *إبراهيم* راضيا عن إدارة السفير للسفارة. فكان ينتقده في هذا الشأن وكنتُ أشاطره نفس الرأي. وفي إحدى المرات كنا نتحدث في هذا الموضوع قلتُ له: أنا مثلا لو كانت لدي بطاقات إدارية من وزارتي الخارجية السورية والأردنية لكان عملي في السفارة أكثر فعالية.

قال لي: "وما المانع من ذلك"؟. قلتُ له: لا شيء، مجرد مذكرة من السفارة إلى الوزارات المعنية والباقي أنا كفيل به. فلم يتردد في الكتابة لطلب تلك البطاقات لي. وفي أقل من أسبوعين حصلنا عليها، بفضل علاقاتي بموظفي إدارة التشريفات بوزارة الخارجية السورية وبفضل علاقات الخلبي في الأردن بوزارة الخارجية الأردنية.

وحين عاد السفير واطلع على هذا الأمر غضب غضبا شديدا. قال لي *إبراهيم* إنه لامه كثيرا وقال له: "سيد احمد مجرد سائق وليس إداريا، ومنحه صفة إدارية غير صحيحة أمر مخالف للقانون السوري والموريتاني معا". فرد عليه إبراهيم: "أنا اتخذت هذا الإجراء بصفتي هو المسؤول عن السفارة، وأنا واثق من أنه يخدم مصالحها، وأنت حر في أن تلغيه إذا شئت".

أما أنا فقد لا مني لوما قاسيا، قال لي: "لماذا تنتهز فرصة غيابي لتطلب من *إبراهيم* هذه البطاقات؟ لماذا لم تطلبها مني شخصيا؟ ألستُ أنا هو السفير وأستطيع إلغائها بجرة قلم؟ أنت دائما تتحين الفرص لخيانتي". وأظن أنه فكر بالفعل في إلغائها، لكنه يدرك تماما أهمية البطاقة الأردنية، فهي تعفي حاملها من دفع ضريبة الخروج، وهي ضريبة يدفعها كل مواطن عربي يغير الأراضي الأردنية تبلغ: **ثلاثة دنانير أردنية**، وهذا مبلغ كبير، نظرا لكثرة تردد أعضاء السفارة على الحدود الأردنية في ذلك الوقت.

نعود إلى موضوع التهريب، لم يتأثر هذا الأمر بغياب السفير، فقد استمر وكأن القائم بالأعمال غير موجود، هكذا كانت تعليمات سعادته واستجابة لشروطه المذكورة اشترى المحاسب سيارة خاصة به ولتعويض ثمنها قام بعملية تهريب إضافية خارجة عن البرنامج المتفق عليه وطلب مني أن لا أذكرها للسفير.

عـاد السـفير بعـد غياب دام شـهرا واسـتقبلني في المـنزل وقـال لي وهـو يبتسـم: "**آيه شُو لخبار يا سيد احمد**". (كان يحب الكلام باللهجة المصرية) قلت له: كل شيء على ما يرام. ذهبنا فـي غيابكم كذا من مرة ولم نتعرض لأيـة مشاكل للّه الحمد. وعلى مستوى السفارة العمل يجري كمـا ينبغـي. ولم أتطرق إلى موضوع البطاقات ولا إلى عملية التهريب: فحرك رأسه بمـا يشـير إلى أنـه لم يقتنع بما قلتُ له وهو محـق في ذلـك. فكـان يعلـم بكـل شـيء؛ فعملية التهريب أخبره بها *الحلبي* أما موضوع البطاقات فقـد اطلـع عليـه من أرشيف السفارة.

لم يستطع المستشار *إبراهيم ولد الشيخ* **تحمّل مواصلة العمـل** في هذا الجو المكهرب: قال لي إنه طلب من السفير أن يعطيـه سـيارة للـذهاب إلى السعوديـة لأداء العمـرة وأنه نص على أن أكـون أنا هو السـائق الـذي يـذهب معه. وعندمـا رفض الموافقـة علـى طلبـه قـرر العـودة إلى الـوطن. وقـد سـر السفير والمحاسب بهذا القرار.

حوّل المحاسب إلى **باجول بغامبيا**. لكن تحويله جاء في الوقت الذي لم يعد يرغب فيه. وقد طلب من السفير التدخل للرجوع عنه. لكـن الأخـير لم يفعـل ذلك. بل كانت فرحته به أكبر. فقد تخلص مـن *إبـراهيم* الـذي يعتبره مجنونـا وكذلك من المحاسب الشريك المزعـج.

كان *إبراهيم* يلمح لي إلى أنه يعلم أن السفير والمحاسب يقومان بعمـل ما ولكنه لا يعرف طبيعته. وقد حاول أكثر من مرة أن يطلع مني علـى بعـض التفاصيل ولكني كنت أتهرب من أسئلته. ولو أنه بقي في سوريا فترة أطـول لتسبب لهما في إحراج كبير.

مرة أصيب بوعكة صحيـة وقام السـفير بزيارتـه في منزلـه للاطمئنـان عليه وكان معه المحاسب فرفض استقبالهما. وكانـت هـذه ضـربة معنويـة قوية. فالدبلوماسيون يتمنون أن يستقبلهـم السفير في مكتبه أو في منزلـه أما أن يزورهم في بيـوتهم فهـذا شـرف عظـيم لكنـه لم يكـن كـذلك عنـد *إبراهيم ولد الشيخ*.

بعد وصول الأخير حصل بيني وبينه تقارب واضح. لكن السـفير حـال دون ذلك (فرق تسد) كما فعل بالنسبة لعلاقاتي مع آخرين: حصل بيني وبين *إبراهيم* سـوء تفاهـم مرتين: مرة طلب منـي أن أشـتري لـه هـوائي تلفزيـون جيد يستطيع التقاط بث التلفزيون الأردني الذي كان في ذلك الوقـت أفضـل برامج المحطات التلفزيونية في المنطقـة فاشتريتُهُ له واستدعيتُ فنيـا وركبـه له في منزله ولكنه لم يتمكن من التقاط البث بالشكل المطلوب.

وأثناء توليه إدارة السفارة استدعاني في مكتب السـفير وقـال لي: "سـيد احمد أنت تطالبني بثمن الهـوائي وتكـاليف تركيبـه بالإضـافة إلى أشـياء أخرى. وأنا أطالبك بثمن الهوائي نفسـه لأنه لم يعـط النتيجـة المرجـوة منـه. وأنـا واثق من أنك لو كنت بذلت الجهد المطلـوب لكانـت النتيجـة إيجابيـة. إذن سنخصم ثمن الهوائي وتكاليف تركيبه مما تطالبني بـه وأعطيك الباقي".

أزعجني هذا الأمر فقلتُ له: أنا قمتُ بما ينبغـي القيام به والـدليل علـى ذلك أن سكـان الحي الذي يوجد به المنزل كلـهم يعـانون مـن نفـس المشـكلة وعلى كل حال العملية ليست مهمة عندي بهذه الدرجـة. إفعـل مـا يحلـو لك. وخرجتُ من عنده. فخـرج ورائي ودعـاني للجلـوس وهو يبتسم وقال لي: "أنـا كنت أمزح معك". وأعطاني ما كنت أطالبه به كاملا؛ وأظن أنه كان يشك في أن السـفير هو الذي طلب مني أن لا أركب له الـهوائي بشـكل جيـد. وحـين أخبرت الأخير بهذه القصـة قال لي: "هو مجنون لقد فعل أمرا مماثلا مع السائـق عصام".

سـوء التفاهـم الثـاني: كنـتُ المكلـف بنقلـه صبـاحا مـن منزلـه إلى السفارة وإعادته إليه بعد انتهاء الدوام كل يـوم. وتعليمـات السـفير صـريحة: القيام بالمهمة المحددة وأي زيـادة عليهـا لا بد مـن أخـذ موافقتـه مـن جديـد. جئتُ صباحـا لأخذه إلى السفـارة. وكـان يسكـن في الطـابق الأول مـن عمـارة السكن في حي "دمر" بدمشق الذي يبعد حوالي ستة كيلـومترات مـن مقـر السفارة. وجـرت العـادة أن أزمر له لإشعاره بوصـولي وعنـدها يـنزل إليّ. وحـين وصلتُ إذا به ينزل ومعه زوجته وابنه فركبـوا جميعـا في السـيارة ولم يسـلم عليّ خلافا لعادته.

انطلقنا في اتجاه السفارة. وفي الطريق قال لي: " نوصل صفية (زوجته) إلى طبيب إسماعيل (ابنه) ومن ثم نتجه إلى طبيب الأسنان". قلت له في ردة فعل مرتبكة: اليوم. قال لي وهو منفعل "لا. غدا". ساد صمت لبعض الوقت وبعده قلتُ له: يا أستاذ ـ في هذه الآونة أصبحنا أساتذة جميعا ـ أنت تعرف جيدا مدى تشدد السفير في هذا المجال. وأظن أن لا حاجة لك في أن تتسبب لي في مشاكل معه. أنا أحترمك ولا أحب أن أرفض لك طلبا لكن أنا عبد مأمور.

كنتُ أتعاطف معه لعدم رضائي عن معاملة السفير والمحاسب له. وأنا واثق من أنه لا يحب أن يضرني ولكن تقييد السفير لحرية السائقين هو السبب في هذا كله. فاعتذر لي وطلب مني السّماح: أوصلنا زوجته إلى طبيب ابنه وكذلك أوصلته هو إلى طبيبه وعندها قال لي: "يمكنك الذهاب إلى السفارة". إلا أني قررت أن أنتظره حتى ينتهي من معاينته الطبية وليكن ما يكن. ولحسن الحظ لم يعلق السفير على تأخرنا.

وصلت تذاكر إبراهيم وأسرته للعودة إلى أرض الوطن بشكل أسرع من الوقت المعتاد، ولكن عليه أن يقطع تذكرة سفر لعامل معه، اسمه *أحمد* على حسابه الخاص. وهذا مكلف بعض الشيء. فطلب مني مساعدته في الحصول على تذكرة سفر بالتخفيض الدبلوماسي له. وهذا ليس بالأمر السهل. فالعامل لا يحمل صفة تخوله هذا التخفيض الذي من أهم شروطه الجواز الدبلوماسي. فنصحته بأن يطلب من السفير أن يطلب له هذا التخفيض من الخطوط الجزائرية بموجب مذكرة رسمية والباقي أنا أتكفل به.

قال لي: "السفير لن يقبل ذلك وأنا لا أريد أن أطلب منه أي شيء". قلتُ له: حاول وإذا رفض فتلك قصة أخرى؛ وافق السفير على طلبه دون تعليق وبفضل علاقاتي مع العاملين في الخطوط الجزائرية بدمشق تم تجاوز عقبة الجواز الدبلوماسي وبالتالي حصل هذا العامل على تذكرة سفر من دمشق إلى نواكشوط بالتخفيض الدبلوماسي. وقد امتّن كثيرا لهذه الخدمة.

غادر المستشار *إبراهيم*، وبعده بقليل غادر المحاسب *ديدي ولد السالك* هو الآخر. وقبل سفره بيوم واحد ذهب مع السفير إلى لبنان وسلمه مفتاح **الخزينة النووية**" ومن هنا تضاعفت وتيرة العمل: فكان سعادته يذهب مساء كل يوم تقريبا إلى لبنان ويحمّل السيارة الرسمية المرسيدس **200** رقم: 1/151 من مختلف أنواع "**البندوره**" (سيأتي شرح هذه التسمية لا حقا) ويعود إلى دمشق. وفي الساعة الخامسة فجرا في اليوم التالي يذهب إلى **الحلبي** في مدينة أربد الأردنية ويعود في حدود الساعة الحادية عشرة ويداوم في مكتبه وكأن شيئا لم يحدث.

كنتُ أطلع على هذه التفاصيل بسهولة من زميلي **محمدو دمبا صال** سائق السفير. وكذلك من خلال غياب السفير المتكرر. وأكثر من هذا كله فكنت أراقب عداد السيارة. وبهذا أعرف المسافة التي تقطع في كل مرة وفي الاتجاهين. وكانت مراقبتي لعداد السيارة هذه مستلهمة من السفير **محمد محمود ولد ودادي**؛ أثناء تحضيره لتسليم العمل للمحاسب عند مغادرته سوريا أمرني بأن آتيه بأرقام عدادات السيارات كلها؛ وبعد وصول السفير **محمد فاضل ولد الداه** بفترة قصيرة أمرني بأن آتيه بها أيضا.

وفي إحدى محاضرات الأخير ـ التي كان يلقي علىّ بمناسبة أو بدون مناسبة ـ قال لي: "**محمد محمود ولد ودادي** شخص فريد من نوعه. عند مغادرته ترك في وثائق تسليم العمل آخر رقم مسجل في عداد كل من السيارات. وأنا لاحظت أن السيارة الرسمية قطعت كذا من كيلو متر بعد مغادرته. أين كانت تذهب؟". قلتُ له: لا أدري. لكن هذا الأمر أثار في نفسي شكوكا، في أن القائم بالأعمال والمحاسب ربما كانا يقومان بعمل ما. ولمعرفة مدى حقيقة ذلك قلتُ للأخير: طال ما أن هذا العمل يوفر كل هذه المداخيل فلماذا لم تمارسونه من قبل؟.

فاعترف لي بأنه قام هو والسائق *محمد ولد زيد* سرا بمحاولة مرة أو مرتين. وأنهما كانا يتعاملان مع شخص في دمشق، يبيعان له البضاعة بالدين. لكن هذا الشخص كان يماطلهما كثيرا عند التسديد في كل مرة. مما لم يشجعهما على المواصلة، بالإضافة إلى ما ينطوي عليه الذهاب إلى لبنان من مخاطر في ذلك الوقت بسبب الحرب الأهلية الدائرة فيه.

وقد اتضح لي بعد ذلك أن القائم بالأعمال أو المحاسب أو هما معا قاما بمحاولة أو أكثر من هذا النوع. وقد تعامل في عمان بالأردن في إحدى هذه المرات مع مواطن أردني يدعى *جمال عقراوي*. فقد فوجئت مرة بهذا الشخص يسأل عني في السفارة بدمشق ولديه اسمي الصريح. وحين قابلته تبين أنه لا يعرفني وأنا ـ بالطبع ـ لا أعرفه وأثناء شرحه لي المناسبة التي يعتقد أنه تعرف عليّ فيها تبين أن المقصود ليس أنا. والاحتمال الأرجح هو أن القائم بالأعمال أو المحاسب أحدهما هو الذي أعطاه اسمي.

وقال لي *عقراوي* هذا ـ الذي يقول القنصل الشرفي إنه من المخابرات الأردنية ـ بأنه يتعامل في مجال التهريب مع عدد من البعثات الدبلوماسية. ذكر لي منها: السودانية والصومالية والتشيكوسلوفاكية والروسية؛ وبالفعل كانت هذه البعثات تقوم بنشاطات مشابهة ولكني لا أعرف طبيعتها.

نعم غادر المحاسب *محمد أحمد ولد السالك (ديدي)*، ومغادرته فقدت السفارة محاسبا متمرسا، يحب مهنته ويتقنها، ولا يقبل فيها مساومة؛ مرة كان يستعد للسفر إلى موريتانيا في العطلة فأمره السفير بأن يسلم لي أمور المحاسبة الجارية: شيكات مصرفية بمنح الطلاب ورواتب العمال، بما في ذلك راتب السفير ومبالغ مخصصة للتسيير. وطلب منه أن يترك لي مفتاح مكتبه ومفتاح الخزنة لحفظ ما لدي من نقود وشكات حتى يعود. فقال له: "سعادة السفير، أنا حياتي مرتبطة بمفاتيح مكتبي وخزنتي، لا أستطيع فراقهما أبدا". ابتسم السفير وقال: "لاحول ولا قوة إلا بالله". وكان بالفعل يضع مفاتيح الخزنة في شريط ويعلقه في رقبته تحت ملابسه الداخلية وينام بهم هكذا. وأمانة فقد اكتسبت منه خبرة جيدة في مجال المحاسبة.

وبعد فترة حل المستشار الأول *عبد الله ولد بنحميدة* محل *إبراهيم ولد الشيخ*. وفورا بدأت بوادر الخلاف تظهر بينه وبين السفير: *فعبد الله* كان فقيها في أمور السفارات وطرق تسيير مخصصاتها المالية، فسبق وأن كان قائما بأعمال أصلي بالسفارة الموريتانية بالقاهرة فترة من الزمن: وقبل مغادرته موريتانيا إلى سوريا التقى بالمحاسب ـ المغادر للتو ـ وأطلعه على كل أسرار السفارة.

قال لي *عبد الله*: "الأستاذ سيد احمد أنا التقيت المحاسب قبل مغادرتي نواكشوط وأطلعني على كل شيء ونصحني بأن أعتمد عليك. وبالعلامة قال لي إنك لست راضيا عن السفير وأنك كتوم جدا. ومثلك خسارة في هذا النوع من البشر، الذي لا يقدر جهود الناس. لو أنك وجدت سفيرا محترما لكان وضعك أفضل وكذلك وضعه هو ووضع السفارة أيضا؛ كيف ترضى أن تبذل كل هذه الجهود بدون مقابل. أنا أقول لك بصراحة بأني حين أتولى قيادة هذه السفارة أسبوعا واحدا سوف تتغير أحوالها وأحوال عمالها".

وقد نال بهذا الحديث الحلو إعجابي وكذلك إعجاب العمال والطلاب أيضا، وأصبح الجميع يحترمه ويتعاطف معه لمجرد حسن نيته هذا؛ وقد حاول بشكل واضح استغلال هذا التعاطف ضد السفير، فكان ينتقده علنا ويحرض عليه الجميع مما كان له أثر البالغ على نفسية الأخير؛ وإلى حد ما نجح *عبد الله* في أن يجعلني أثق به ولكني رفضتُ الخوض معه في أسرار التهريب.

وفي وقت لاحق حُوّل إلى السفارة مستشار ثان يدعى *الشيخ ولد أحمدو*. (قبل إن السفير هو الذي طلب تحويله من أبو ظبي إلى دمشق، لأنه يعرفه حين كانا في بغداد بالعراق: محمد فاضل سفرا والشيخ دبلوماسيا بالسفارة هناك). وقبل وصوله بفترة قصيرة اشترى السفير سيارة شخصية من نوع مرسيدس **280** وحوّل إليها رقم السيارة الرسمية: **1/151** ووضعها تحت تصرفه. وبهذا حل محله في جولاته المكوكية المذكورة.

وقد تفانى هذا المستشار في خدمة السفير حتى رماه البعض بالنفاق، في حين كان الأخير يستغل طيبته أبشع استغلال. فقد أقنعه بأن الحلبي يشتري البضاعة: **بسبعة دولارات**. وعلى هذا الأساس من المفروض أن يتحدد نصيبه، بينما كان الحلبي يحتفظ للسفير بفرق السعر حتى يلتقي به. والطريف في الأمر أنه في بعض الأحيان كان يرسله له مع المستشار نفسه على شكل حقيبة دبلوماسية مختومة بالشمع الأحمر.

وفي مرحلة لاحقة قرر السفير توسيع العملية فأشرك فيها المحاسب الجديد ووضع تحت تصرفه السيارة المرسيدس الرسمية، التي أصبحت تحمل الرقم: **4/151** ولهذا استدعاني في مكتبه وقال لي: "أنا كنت أتطلع إلى علاقات جيدة معك تعود بالمنفعة عليك وبالمقابل تكون أنت مساعدا لي في نجاح مهمتي في هذا البلد. ولكنك لم تكن على المستوى الذي كنت أتطلع إليه. فضلت صداقة ***ولد حميدة وأفليان*** على صداقة السفير الذي يستطيع أن ينفعك وقادر على أن يضرك. ولذلك أنا أخترت عنك *دميا صال*، الذي هو (**كوري**) ليكون معي في أموري الخاصة. علما أنك الأولى بهذه الثقة.

ثم يتابع: وعلى الرغم من هذا أنا أحب الخير للجميع. المحاسب يرغب في ممارسة التجارة وقد طلب مني أن أساعده وقررت أن أعطيه سيارة وأن أبعثك معه. لكي تستفيد ويستفيد هو (**المسكين**). وسوف أغفر لك ما مضى. والآن نفتح صفحة جديدة وأعطيك فرصة لتصحيح أخطائك. ولكن حذار أنت هو المسؤول عن نجاح هذه العملية أو فشلها. فالمحاسب شخص.... وأنا لا أثق فيه. وإذا تعرضتم - لا سمح الله - لأية مشكلة لا تذكروا اسم السفير لا من قريب ولا من بعيد. لكي نستطيع التدخل بشكل فعال في الوقت المناسب".

وكان علينا - المحاسب وأنا - القيام برحلتين في الأسبوع. أما المستشار الثاني والسائق *دميا صال* فيقومان بثلاث رحلات أسبوعيا؛ ولا أعرف كم يعطي لكل منهما في الرحلة. فكان يخفي عن كل منا ما يقوم به مع الآخرين. ورما يخص المستشار الثاني بنصيب أكثر وببعض الأسرار بحجة الصداقة التي كانت محمولة كلها على أكتاف هذا الأخير.

وكان المستشار الأول هو الوحيد الذي لا يشارك في العملية وبهذا يشكل ضغطا معنويا ثقيلا على الجميع. وقد اقترح المستشار الثاني على السفير إشراكه فيها مما يضمن سكوته على الأقل. وقد عرض السفير الأمر على المستشار الأول فقبل العرض. وقد سر السفير بذلك كثيرا إلى درجة أنه أطلعنا عليه جميعا باعتباره حدثا مهما. خلافا لقاعدته المعروفة.

وبعد هذا التطور في مستوى عمل التهريب غادر السفير إلى فرنسا لإجراء بعض الفحوص الطبية وتولى المستشار الأول مهمة القائم بالأعمال بالنيابة. وقبل سفره أعد السفير برنامجا مكثفا. كل واحد منا أعطيت له تعليمات خاصة به: أنا مثلا عليّ أن أذهب ثلاث مرات أسبوعيا. مرة مع القائم بالأعمال ومرتين مع المحاسب دون أن يعلم أي منهما بذهابي مع الآخر. علما أن القائم بالإعمال من حقه إداريا أن يطلع على غيابي في أوقات الدوام الرسمي بل أكثر من ذلك عليّ أن أحصل على موافقته مسبقا.

لكن تعليمات السفير تقول: "لا تخبر القائم بالأعمال بغيابك مع المحاسب ولا تخف. أنا وراءك". قام القائم بالأعمال برحلة واحدة ثم توقف. وصلنا إلى منزل *الحلبي* في أربد ولم يكن الأخير موجودا. وجدنا زوجته (*أم هشام*). وكان زوجها قد ترك عندها ثمن البضاعة على أن تسلمه للقائم بالأعمال عند وصوله.

نتوقف هنا قليلا لشرح بعض الأمور التي قد تكون مهمة لتسلية القارئ الكريم: في البداية كنا مهربين مبتدئين ونستحي من التصريح بأسماء السجائر، فكنا نسميها **التجارة**، مرورا **بالورق**، **فالبندورة**، **فالبضاعة**. وبعد ذلك سماها البعض **الكتب**، **وموضوع لبنان**، **وأمورنا الخاصة**. وبعد ذلك أصبحنا محترفين ومتخصصين في أنواع السجائر وأشكالها: فهناك **المالبورو الحمراء والماربورو البيضاء (ألايت) والوينستون والدنهيل** وأشكال أخرى نسيت أسماءها، فيها **الطويلة** وفيها **القصيرة** وفيها **العريضة والرفيعة**. وكان القنصل الشرفي يتقن فن بيعها. فحين يطلب منه زبون كمية من **البندورة** مثلا يشترط عليه أن يشتري معها كميات من العينات الأخرى التي قد يكون الطلب عليها أقل في حينه. (سنشرح أسباب بعض هذه التسميات أكثر لاحقا بإذن الله).

وبعد أن سلمت *أم هشام* ثمن البضاعة للقائم بالأعمال سلمه لي وطلب مني عده أمامها. وكان يمثل ثمن البضاعة بسعر: **سبعة دولارات**. ومن هنا اكتشفتُ أن السفير كان يغالط صديقه المستشار المقرب وكذلك المحاسب في السعر وأنه ينوي مغالطة القائم بالأعمال بنفس الطريقة. ولكن الأخير ـ كما ذكرنا ـ كان قد اطلع من المحاسب السابق على كل التفاصيل وبالتالي تأكد تلقائيا من أن السفير ينوي مغالطته. هذه الأمور كانت تدور في الأذهان فقط. لا أحد يستطيع أن يسأل عن أية تفاصيل خوفا من السفير.

وعلى الرغم من مشاركته المحدودة في هذا العمل يقول القائم بالأعمال إنه لم يكن ينوي الدخول بشكل جدي فيه، إنما كان يريد أن يتأكد أن السفير يمارسه بالفعل؛ وقد ضاع نصيبي من هذه الرحلة بسبب خلاف السفير والمستشار الأول. وبالمناسبة اعتذر لي الأخير عن ذلك مؤكدا لي أنه سلم المبلغ كاملا للسفير ولم يأخذ منه شيئا.

كان السفير في باريس يراقب سير العمل مع كل منا حسب موقعه. ويبدو أن القنصل الشرفي أخبره هاتفيا بما جرى، وفي اتصال هاتفي له معي سألني عن تفاصيل رحلتنا ـ لما لها من أهمية عند الجميع آنذاك ـ فأخبرتُهُ ببعض من تفاصيلها وأخفيتُ عنه أمرين: الأول أننا رفعنا العلم على السيارة عند عبورنا للحدود الأردنية لإطفاء الرسمية على مهمتنا، والثاني كون القائم بالأعمال طلب مني عد ثمن البضاعة أمام زوجة القنصل الشرفي. لكن المفاجأة الكبيرة هي قرار القائم بالأعمال التوقف عن هذه العملية.

عاد القلق من جديد. فالأخير كان يشكل ضغطا معنويا ثقيلا على الجميع وهو خارج اللعبة ولا يعرف الكثير عن تفاصيلها واليوم أصبح يعرف كل شيء؛ قال لي السفير وهو يحاول الظهور بمظهر القوة: "كما يريد، نحن لم نعرض عليه هذا الأمر، هو الذي طلبه منا وحده وإذا توقف عنه فذلك يعنيه، واصل أنت عملك مع المحاسب حتى أعود".

وفيما أظن أن القائم بالأعمال كان جادا في المشاركة في العملية لو أن السفير خصه بمعاملة أفضل مما هو الحال بالنسبة للآخرين. وحين اتضح له عكس ذلك فضل العودة إلى الضغط النفسي، في محاولة واضحة لفضح السفير على المستوى الوطني وربما للإطاحة به؛ هذا ما فهمته من تلميحاته. وأظن أيضا أن السفير كان مستعدا ليخص المستشار الأول بتلك المعاملة لو أنه أبدى قدرا ولو قليلا من المرونة، مما أدى إلى نشوب حرب مكشوفة بينهما كان النصر فيها للسفير.

وفي زحمة هذه الخلافات أوقف الجمارك السوريون المستشار الثاني في مدينة درعا الواقعة على الحدود مع الأردن وطلبوا تفتيش سيارته. فاتصل بالسفير وأخبره بالأمر وبدوره اتصل السفير بمدير التشريفات بوزارة الخارجية السورية وفي الأخير صدرت التعليمات بعدم تفتيش سيارة المستشار والسماح له بمواصلة رحلته؛ وعند عودته قال للسفير إن الجمارك صرحوا له بأن لديهم معلومات دقيقة عن قيام بعض سيارات السفارة بنشاطات مشبوهة؛ وهذا ما هو إلا واحد من أساليب الجمارك. ولا يعني أن لديهم معلومات بالفعل. فهم يقولون ذلك دائما لمن يشكّون فيه. لإرهابه من جهة. ولتبرير تصرفهم معه من جهة أخرى.

وفي وقت لاحق قرر المحاسب بدوره التوقف عن العملية. وبعد ذلك بقليل استدعاني السفير وقال لي: "أنا كنت أغبطك لأنك وحدك أما اليوم وقد أصبحت لديك أسرة لم أعد أتحمل تلك المسؤولية. والآن أنت حر في اتخاذ القرار الذي تراه مناسبا". قلتُ له بدون تردد: ما دمتم تخبرونني يا سعادة السفير فأنا لا أرغب في هذا العمل على الإطلاق.

وجد السفير في هذا الأمر تآمرا عليه. من قبل المستشار الأول والمحاسب. قال لي فيما بعد إن لديه معلومات تفيد بأن الأول هو الذي أعطى تلك المعلومات للجمارك وأنه هو الذي نصحنا المحاسب وأنا بالتوقف عن هذا العمل تفاديا لخطر يراه وشيكا؛ وعند هذا الحد توقفت العملية. وبدأ السفير يخطط للانتقام من الجميع. ولهذا الغرض كلف صديقه المستشار الثاني بمهمة جمع المعلومات. للوقوف على مدى التنسيق فيما بيننا. ولكن صديقه هذا كان رجل مخابرات فاشلا؛ ففي محاولة لجمع بعض المعلومات أثناء وجود السفير في باريس اتصل هاتفيا بالمستشار الأول في منزله ولم يجده فسأل ابنته التي ردت على الهاتف عن أين ذهب ومن معه من السائقين وفي أي السيارات؟.

وقد انزعج المستشار الأول من هذا الأمر. وفي حديث جرى أمامي قال لزميله وبنبرة حادة: "يا أستاذ أنا لا أخبر الأطفال عن أين أذهب وإذا كنت تريد معرفة ذلك اسألني شخصيا ولن أخفيه عنك". رد المستشار الثاني بعصبية: "أنا رجل كبير ولا أعلّم كيف أتصرف". قال له الأول "فيما يخص بيوت الناس يجب أن تتعلم كيف تتصرف". اعتذر الثاني وسكت؛ وعندما بقينا. أنا والأخير وحدنا. قال لي: "يا أستاذ سيد احمد أنت العاقل ما قاله **بن *حميدة*** معقول؟ أنا شيباني على أن يعلّمني ***ولد حميده*** كيف أتصرف". حركتُ رأسي بطريقة لا تؤيد ما قال ولا تعارضه.

ففي ذلك الوقت أصبحت لغة التفاهم فيما بيننا هي: أظن. قد يكون. يكن. لا أدري. الله أعلم. إن شاء الله. سبحان الله. هذا غريب. هذا عجيب.... .!!!. وبدوره كان السفير يواصل الضغط عليّ للغاية نفسها. يرهبني أحيانا وأحيانا يغريني. وكنتُ أمر في هذه الفترة بظروف مادية صعبة وقد حاولتُ بالفعل أن أستجيب لرغبته ولكني في النهاية لم أستطع أن أصل إلى الحد الذي كان يريده مني.

وفي هذا الجو حاول المستشار ***الشيخ*** مرة أخرى أن يخفف من حدة التوتر بين السفير والمستشار **الأول *عبد الله*** ولكنه فشل؛ وفجأة حُول ***عبد الله*** من دمشق إلى دكار بالسنغال. وبخصوص تحويله قال لي السفير: "صاحبك حُول إلى السنغال. والحمد لله فالوزارة هي التي حَوّلته وحدها".

وبعد ذلك عاد وقال لي: "لقد حوّلناه بعد أن ساء سلوكه. فقد كتب ضدي مجموعة من التقارير إلى السلطات السورية والموريتانية. وحرض علي الطلاب واستعان بمجموعة منهم تناصبني العداء السياسي ودفعهم كذلك إلى الكتابة ضدي إلى موريتانيا. ولاشك أنك على علم بهذا". قلتُ له: هذا غريب. حرك رأسه وقال لي: "وما الغريب في الأمر؟". قلتُ له: فيما يخص الكتابة إلى موريتانيا هذا معقول أما الكتابة إلى السلطات السورية فهو تصرف غير مسؤول إذا كان قد حصل. وكان واضحا من كلامي أني لستُ مقتنعا بما قال.

استطاع *عبد الله* أن يقنعني بشخصيته وكانت ثقتي به كبيرة. وكنتُ متأكدا أنه لا يمكن أن يقدم على مثل هذا التصرف. وكانت قناعتي هذه تزعج بل تغضب السفير *محمد فاضل*. *عبد الله ولد بنحميده* رجل عزيز النفس. ويملك شخصية قوية. وكان واثقا من نفسه إلى درجة كبيرة. ويرى بعض الناس دونه بدرجات خاصة من لا يكن لهم الكثير من الاحترام. عند وصول أسرته إلى دمشق زارتها زوجة السفير وزوجة المستشار الثاني. بالإضافة إلى زوجتي لتقديم واجب السلام. وكان من المفروض أن ترد لهن الزيارة ولكنها لم تفعل بل أكثر من ذلك رفضت دعوة بعضهن.

وفي هذا الصدد أكد لي أن زوجته لا تخرج من منزلها لزيارة أي أحد. ولو كان لها أن تفعل ذلك لقامت بزيارة زوجتي بمناسبة ميلاد ابني جمال. ولذلك زارنا نيابة عنها في هذه المناسبة وقام بالواجب المعروف في هذا الشأن. كما فعل المستشار *الشيخ* وعدد من الطلاب. أولهم المهندس *أحمد ولد ودادي*؛ وبعد عدة أشهر على مضي هذه المناسبة أعطاني السفير *محمد فاضل* مبلغ: **خمسين دولارا** وقال لي: "هذا المبلغ ربما يكون متأخرا عن وقته المناسب والسبب تعرفه". في إشارة لعدم رضائه عني.

وكان السفير *محمد فاضل* ينتقص من معاونيه دائما باستثناء المستشار *الشيخ* الذي كان يمنحه لقب الأستاذ. قبل أن يعمم هذا اللقب على الجميع كما سبقت الإشارة إليه. حين يبعثني مع المستشار *إبراهيم ولد الشيخ* يقول لي: اذهب مع هذا المجنون. ومع المستشار *عبدالله ولد بنحميده*. اذهب مع *ولد حُميدة*. ومع المحاسب *محمد أحمد*. اذهب مع..... ومع المحاسب محمد *محمود*. اذهب مع *البار*؛ ولم يكن يثق في كلام هذا الأخير. حين أقول له: قال *البار*. يفتعل الغضب ويقول لي: "يا أستاذ سيد احمد أنت رجل موثوق على أن تقول قال *البار*. *البار* لا يقول.... وكلامه لا....".

وحين يطلب منه أحدهم أن يعطيه سيارة للقيام بخدمة ما يقول له: "مَا فِشْ مُشْكِلَةْ. خذ ما تشاء من السيارات ومن السائقين". بينما التعليمات الصادرة للسائقين معروفة: "لا تقم بأية خدمة قبل مراجعتي". هذا النوع من التناقضات هو الذي أدى إلى سوء التفاهم الذي حصل بيني وبين المستشار *إبراهيم*. وكان السبب أيضا في إخفاء الكثير من الحقائق في السفارة الموريتانية في دمشق آنذاك. فتناقضات المسؤول تربك صغار العمال وتقتل فيهم روح المبادرة وتدفعهم في أكثر الأحيان إلى الكذب والتحايل.

وقال لي المستشار *الشيخ* إن السفير محمد ففاضل يقول إن الإنسان يألف الأمور بالتعود. إذا أنت عودته على الضرب كل يوم لمدة شهر وتوقفت عن ذلك يوما واحدا يشكوك بدعوى حرمانه من حق مكتسب. وأنه يقول أيضا للمقربين منه إنه يفكر أحيانا في أن يعلم أبناءه الكذب. لأن الكذابين هم الناجحون في هذا الزمن. وكان يعاملني بالقسوة التامة حينا وأحيانا بالمجاملة المبالغ فيها: مرة كنت معه في غرفة نومه وأثناء وجودي دخل عليه أحد عمال المنزل يحمل له كأسا من الشاي فالتفت إليه وقال له: "أين كأس الأستاذ سيد احمد؟ عندما يكون الأستاذ سيد احمد هنا يقدم علينا جميعا".

وكان يعبر دائما عن تقديره لي ويثني عليّ أمامي وبلغني أنه يفعل ذلك في غيابي. ويكلفني بما يسميه المهمات الصعبة. يقول لي: "الأستاذ سيد احمد هذه المهمة لا يمكن أن يقوم بها إلا أنت. **شد حيلك يا بطل**". وكان يختارني لمرافقة ضيوفه المفضلين. مرة استدعاني وقال لي: "الأستاذ سيد احمد هناك سيدة موريتانية ستصل على الخطوط الجزائرية يوم غد وهي زوجة الأخ الأصغر *لخطري ولد جدو*. الأمين العام لوزارة الخارجة سنستقبلها هنا في المنزل. وكن على استعداد للذهاب بها في اليوم التالي إلى أسرة أخوالها في طرابلس بلبنان. هذه أول مرة يطلب مني فيها *خطري* خدمة خاصة ولا أريده أن يشعر بتقصير مني اتجاهه. السيدة معها ابنها الصغير وقد تكون تلبس الزي الموريتاني وقد تكون تلبس الزي اللبناني خذ **بالك منها**. هذا الأمر مهم عندي جدا"

ذهبتُ إلى المطار قبل وقت وصول الطائرة بساعة تقريبا - هكذا أفعل في معظم المهام المحددة بالزمن - وقد استقبلتُ الركاب عند بوابة الطائرة ولكن السيدة لم تصل في تلك الرحلة. فرجعتُ وأخبرتُهُ بعدم وصولها. قال لي: "هذا معناه أنك وصلت متأخرا ولذلك ذهبت هي إلى المدينة وهذا ما كنت أخشاه. عد إلى المطار وتأكد من جديد".

عدتُ إلى المطار وبحثتُ في قوائم جميع الركاب الذين وصلوا إلى دمشق في ذلك اليوم. ومن كل الاتجاهات ولم تكن السيدة من بينهم. فعدتُ وأخبرتُهُ بذلك أيضا. قال لي بانفعال: "يا أخي هي غادرت نواكشوط بحضور زوجها وغادرت الجزائر بحضور السفارة. فكيف لم تصل؟ يعني سقطت من الطائرة في الجو؟ هذا غير معقول. المعقول هو أنك وصلت متأخرا ووصلت هي وذهبت ولا ندري إلى أين؟ اذهب وأبحث عنها في جميع فنادق دمشق". ذهبتُ إلى عدد من الفنادق - وطبعا - لم أجدها. قال لي: "يا أستاذ سيد احمد ما هكذا تؤكل الكتف هذا هو أهم موضوع أكلفك به منذ وصولي إلى دمشق. هذه كبوة".

لم أستطع النوم في تلك الليلة. وتصورتُ كل شيء إلى درجة أني قد أكون تأخرتُ فعلا عن موعد وصول الطائرة. وفي الصباح وصلتُ إلى السفارة. (وأنا أمشي على وجهي، كما يقال) وحين وصل السفير طلبني في مكتبه وعند ما دخلتُ عليه كان يبتسم. ومن المفروض أن تكون تلك الابتسامة مؤشر خير. ولكن ابتسامة السفير..... لا تعني شيئا. قد يبتسم وهو يذبحك. فأمرني بالجلوس وقال لي: "يا أستاذ سيد احمد اسمح لي. أنا ظلمتك أمس ظلما بينا. السيدة لم تغادر نواكشوط أصلا أحرى أن تكون قد غادرت الجزائر". فسالت دموعي من شدة تفاعل المشاعر. وقد ظهر على وجهه هو شعور مماثل: وفي الأسبوع الموالي استقبلتُها في المطار وباتت ليلة في منزل السفير وفي الصباح أخذتها بالسيارة إلى أسرة أخوالها في مدينة طرابلس بلبنان. وبعد شهر تقريبا عدتُ إليها وأتيتُ بها إلى دمشق ومن ثمة عادت إلى موريتانيا.

وفي مناسبة أخرى قال لي: "سعادة السفير ***محمد الأمين ولد يحيى*** اتصل بي وقال لي إن زوجته ***(أم الخيري)*** ستزور دمشق قادمة من تونس في سياحة لمدة أسبوع. وقد طلب مني أن تكون أنت هو الذي يرافقها طيلة وجودها هنا. فجهز سيارة المرسيدس الرسمية ونفذ ما تطلبه منك مهما كان. ***محمد الأمين*** صديق عزيز". ذهبتُ مع حرمه إلى المطار لاستقبال هذه الضيفة وكانت معها صديقة لها تدعى ***مريم بنت محمد صالح*** واصطحباهما إلى منزل السفير، حيث أقامتا لمدة أسبوع.

وأثناء ذلك أبدتا لي رغبتهما في زيارة لبنان - لشراء بعض الحوائج التي لا توجد إلا فيه - على حد قول السيدة ***مريم*** - وقد أدخلتهما إليه بدون تأشيرة دخول. وهناك تُشترى البندورة وغيرها من **الطويل والقصير**؛ وكنتُ أخذهما صباحا ومساء إلى أسواق الشام الجميلة للتسوق، وأحيانا يفضلن تناول وجبة الغداء في بعض المطاعم، وكان يحرجني أن تقوما بدفع ثمن الوجبات أمامي. وفي هذا الصدد سمعتُ السيدة ***مريم*** تقول: "**أول مرة أرى في حياتي سائق أكرم من بَطْارِينْ**". وعند المطار ودعتني السيدة أم ***الخيري*** بحرارة وأهدت لزوجتي قطعة من الذهب.

وكان السفير ***محمد الأمين ولد يحيى*** نفسه يزور دمشق باستمرار ويرى الحياة فيها جميلة، فسبق وأن درس فيها ضمن أجيال الطلاب المذكورة، وكنتُ أرافقه في كل مرة أيضا، وفي إحدى زياراته وكان متوجها إلى **عمّان** بالأردن لحضور مؤتمر دولي أو إقليمي ينعقد هناك ولكنه فضل أن يمر بدمشق ومنها **يسافر إلى عمّان** عن طريق البر. وغداة وصوله استدعاني السفير في وقت متأخر من النهار، وقال لي: "الأستاذ سيد احمد أنت ستسافر حالا مع سعادة السفير ***محمد الأمين*** **إلى عمّان** وستبقى معه حتى يعود".

فأزعجني هذا الأمر المفاجئ، فكان الوقت في حدود الساعة الرابعة بعد الظهر، وكان يومي مشحونا بالعمل ولم أعد بعد إلى منزلي لتناول وجبة الغداء مع أسرتي. وكان انزعاجي واضحا للسفير ***محمد الأمين***. وفي طريقنا **إلى عمّان** قال لي الأخير: "سيد احمد هذا السفير صديقي وإذا كنت لست راضيا عنه فلها لي وأنا أستطيع أن أجعله يغير من معاملته لك".

قلتُ له: بالفعل لستُ راضيا عنه فهو يعاملني معاملة سيئة، ولا يراعي ظروفي، لا المادية ولا الإنسانية. الآن ها هو يبعثني في هذه المهمة بشكل مفاجئ دون أن يعطيني مصروفات للسفر ودون أن أجد فرصة للراحة بعد يوم شاق من العمل. ومنذ مدة طلبتُ منه عطلتي الإدارية السنوية ولم يرد عليّ حتى الآن. وراتبي في السفارة أفضل منه راتب الخادمة التي تعمل في منزل السفير.

قال لي: "عندما نعود سوف أكلمه وستتغير معاملته لك بإذن الله". وقد تحمّل السفير ***محمد الأمين*** مصروفات إقامتي في هذه المهمة. وفي العودة من المطار بعد وداعنا له قال لي السفير ***محمد فاضل***: "طيب يا أستاذ سيد احمد أنت شكوتني للسفير ***محمد الأمين*** وعندما نعود سوف نتحاسب". (مازحا) قلتُ له سعادة السفير أنا لم أشكوكم فهو سألني وقلتُ له بعض الحقائق فقط.

ومن بين زواره أيضا السيد ***المحجوب ولد بيه***. السفير الموريتاني في ليبيا آنذاك صحبة زوجته قادمان من السعودية، حيث كانا يؤديان فريضة الحج وقضيا معه أسبوعا، وكنتُ أيضا السائق المرافق لهما. وقبل مغادرته بفترة قصيرة زاره صديق له هو ***محمدو الناجي ولد محمد أحمد*** صحبة أسرته أيضا.

ونظرا لصداقتهما ـ التي بدت لي عميقة ـ انتهزتُ الفرصة وطلبتُ من ***محمدو الناجي*** التدخل لديه من أجل أن يمنحني راتبي بالعملة الصعبة قبل مغادرته. وقد وعدني بأنه سوف يكلمه في هذا الأمر. وبعد ذلك عاد إليّ وطلب مني أن أعفيه من هذه المهمة: "الأستاذ سيد احمد أنا فكرت جيدا في الموضوع الذي تعلم ولكنني لم أستطع طرحه على السفير، لأنه يستعد للمغادرة وبما أنه كان يرفضه من قبل ليس من المعقول أن يوافق عليه وهو محوّل. لننتظر قليلا. إذا كان الأستاذ ***الشيخ*** هو الذي سيبقى قائما بالأعمال لا شك أنه سوف يساعدك بما يستطيع وإلا ننتظر قدوم السفير الجديد، ربما كنا نعرفه ونستطيع أن نطلب منه هذا الأمر". وأظن أن ***الشيخ*** هو الذي أشار عليه بهذا الرأي.

كما كان من زواره أيضا أخوه قادما من السعودية عن طريق الخرطوم بالسودان ومعه أسرته: يوم استقبلناه في مطار دمشق كان معه مبلغ نقدي كبير فسألني السفير عنما إذا كان من الضروري التصريح به للسلطات في المطار؟ فقلتُ له على عجل أن لا داعي لذلك على اعتبار أن وجودنا معه يكفي للتغطية على ما لديه من نقود.

وعند مغادرته في المطار سأله أحد رجال الأمن عند بوابة الطائرة عن هل لديه مبالغ نقدية؟ فأجابه بنعم وأخرج ظرفا كبيرا مليئا من النقود. وسلمه لرجل الأمن ففتحه الأخير واطلع على ما فيه وأعاده إليه وقال له: "سفرا سعيدا". على الرغم من تشدد السلطات السورية في مثل هذه الأمور.

فالقانون السوري في ذلك الوقت يسمح للمسافر غير السوري واللبناني بالخروج بمبلغ: **ألفي دولار أمريكي** أو ما يعادلها من العملات الأخرى وما يزيد على ذلك يحتاج إلى إذن من السلطات المصرفية، أو أن يكون المسافر سبق وأن صرح به عند الدخول: وقد تملكني الخوف من أن يصادر الجمارك هذا المبلغ لأني أنا هو السبب في عدم التصريح به أصلا. وعندما أخبرتُ السفير بما انتابني من خوف فيما بعد قال لي: "هو صالح من الصالحين وأموره يتولاها الله دائما".

بدأ المحاسب ***محمد أحمد ولد السالك*** في تسليم العمل لخلفه ***محمد محمود ولد البار*** وعند الدخول في التفاصيل تبين أن الأخير لا خبرة لديه في فن المحاسبة، ولذلك اقترح ***محمد أحمد*** على السفير أن يسلم له العمل بحضوري أنا. وبعد ذلك أقوم بتدريبه شيئا فشيئا حتى يتعود على العمل. وقد وافق السفير على هذا الاقتراح. وأمضيتُ فترة ليست طويلة وأنا أقوم بجزء كبير من عمل المحاسب قبل أن يبعدني السفير عن هذا الملف الحساس. ويتولى هو عملية تدريب المحاسب التي لم تؤد في النهاية إلى نتيجة تذكر.

وفي هذا المجال كنتُ أتولى صرف منح الطلاب. وهي عملية شاقة جدا ومتعبة خصوصا في بداية كل سنة دراسية. ففي هذه الحالة يتطلب الأمر عملا إضافيا: فالطلاب الذين يدرسون في السنة الثانية مثلا. بعضهم مطلوب منه أن يقدم وصلا بنجاحه إلى السنة الأعلى كشرط لصرف المنحة. وهذا يتطلب الرجوع إلى ملفات الطلاب من حين لآخر. خاصة أن بعضهم كان يحاول مغالطة السفارة في هذا الشأن؛ ويستغرق صرف المنحة أحيانا أكثر من أسبوعين. فالطلاب يدرسون في مختلف المحافظات السورية وعند صرف المنح يأتي مندوب من كل محافظة ليستلم منح زملائه وهذا يأخذ وقتا طويلا. مع احتمال وقوع أخطاء قد تكون قاتلة بالنسبة لي.

مرة كنت أراجع حساباتي أثناء القيام بهذه المهمة فظهر عندي نقص بمبلغ: **مائة وتسعين دولارا**. وقد لاحظ السفير على وجهي عدم الارتياح فسألني عنما بي وحين شرحتُهُ له تجاهل الأمر تماما؛ وهذا المبلغ يعادل راتبي لشهرين؛ وكنتُ أتنقل أحيانا في حافلات النقل العمومي وأنا أحمل مبالغ كبيرة من الدولار في حقيبة يد صغيرة. في الوقت الذي كان من المفروض أن يضع السفير تحت تصرفي سيارة من سيارات السفارة أثناء العملية على الأقل.

وكنتُ أقوم بهذا العمل الشاق دون مقابل. إذا ما استثنينا عبارة خجولة كان السفير محمد *فاضل* يرددها دائما: "المحاسب ينبغي أن يتقاسم راتبه مع سيد احمد". وحين يشير عليه أحدهم بمنحي راتبي بالعملة الصعبة يقول له: "سيد احمد ربه محمد *محمود ولد ودادي* وما لم يجده المرء عند ربه ينبغي أن لا يطلبه من العباد".

وعندما يتعلق الأمر بمصالحه الخاصة تراه يتودد ويجامل. مرة ذهبتُ في العطلة إلى موريتانيا وقد سافرت معي حرمه في نفس الرحلة. وكانت تحمل ثلاث حقائب مليئة بالأغراض الثمينة. فقال لي في المطار: "الأستاذ سيد احمد آمنة (مِتْبَدّيَه) وتجربتها في الأسفار قليلة وعند وصولكم إلى مطار نواكشوط خذ بالك من حقائبها. شد حيلك يا بطل هذه مهمتك".

ونحن في الجو بين نواكشوط والجزائر خطر ببالي أن أعطيها مبلغا بسيطا عندي من الدولار حتى تخرج من المطار خوفا من التفتيش نفسه بوصفها دبلوماسية وعقيلة سفير ولكني عدلتُ عن ذلك في اللحظة الأخيرة. خوفا من أن تمن عليّ بهذا الأمر في المستقبل. وعند وصولنا إلى مطار نواكشوط وجدتُ أخي في استقبالي وكان معه أحد عناصر الشرطة العاملين بالمطار وعند سلم الطائرة أخذ الشرطي حقيبتي وأوصال العفش وأخرجه من المطار دون تفتيش. في حين دخلت حرم السفير من حيث يدخل الركاب. وبينما نحن في انتظارها - أمام مدخل المطار ومعنا إخوتها - إذا بالشرطي المذكور يخبرنا بأنها موقوفة عند مكتب الجمارك.

فذهبتُ إليها ووجدتُ رجلا وسيدة من الجمارك يحرران محضرا بضبط مبلغ حوالي **أربعين ألف دولار** كانت بحوزتها. فقلتُ لهما: يا جماعة هذه حرم السفير ومن غير اللائق أن تعامل بهذا الشكل. قال لي الرجل: "لا حول ولا قوة إلا بالله هذا يبدو أنه قضاء وقدر". كان هذا الجمركي مستعد للتساهل معها ولكن زميلته رفضت ولا أدري لماذا. فقد تكون السيدة حرم السفير وجهت إليها عبارات نابية. وفي الصباح ذهبتُ إلى العقيد *محمد الأمين ولد انجيان*. وزير الشؤون الخارجية والتعاون وأخبرته بالحادثة. فقال لي: "أخبرني إخوتها بذلك قبل قليل واتصلت بوزير المالية وسوف يعاد لها المبلغ ولكن بالسعر الرسمي".

وعلى الرغم من جديتي في العمل والتفاني فيه فقد حاول السفير محمد *فاضل* الاستغناء عن خدماتي. ولكنه لم يستطع فعل ذلك في النهاية. لا أقول إن السفارة لا تستطيع الاستغناء عن خدماتي ولكني أستطيع القول إن موظفيها في ذلك الوقت لم يكن من بينهم من هو أفضل مني؛ وقد اتضح هذا الأمر عندما انتهت صلاحية جواز سفري ولم أستطع تمديده بسبب ارتفاع رسوم التمديد؛ وحين طلبتُ من السفير إعفائي منها رفض بحجة أنه لا يستطيع مخالفة القانون. وبالمقابل قررتُ أن لا أجدده على حسابي مهما كلفني ذلك. وأبلغتُ هذا الموقف للسفير ضمنا وقلته صراحة لصديقه الأستاذ *الشيخ*.

وبعد انتهاء صلاحية جواز سفري انتهت صلاحية هويتي الإدارية السورية أيضا. وحين أخبرتُ السفير بذلك أخذها مني ووضعها على مكتبه ولم يقل لي شيئا. وهذا يعني أني لم أعد أستطيع السفر خارج سوريا. ولا حتى سحب بريد السفارة المسجل حيث كنتُ المسؤول عن هذه المهمة؛ وفي محاولة للتقليل من أهمية دوري في السفارة قرر السفير تكليف زميلي *عصام* بالمهمة الأخيرة فبعث بمذكرة إلى وزارة الخارجية السورية لاعتماده بدلا مني؛ لأن الموظف المكلف باستلام البريد المسجل يحمل صفة أمنية خاصة واسمه مقيد لدى مختلف الدوائر الأمنية وتغيره يتطلب إجراءات ربما تكون معقدة.

فأخبرتني الكاتبة بهذا الأمر. فذهبتُ إلى الموظف السوري المسؤول عن البريد المسجل في المؤسسة العامة للبريد وطلبتُ منه أن يحتفظ لي برسائلي الخاصة وأن لا يسلمها لمندوب السفارة. فأثار هذا الأمر فضوله وسألني عن السبب فأطلعتُهُ عليه فقال لي: "كن واثقا من أن هذا البريد لن يسحب من هنا ولو بعد مائة سنة إلا من قبلك أو بأمر منك ولتفعل السفارة ما تريد". سررتُ لهذا الموقف ولو أنه يمثل عرقلة لعمل بعثة بلادي ولكني كبوت.

كانت لدي علاقات طيبة مع هذا الرجل ـ الذي يقول البعض إنه من المخابرات وأن له صلة قوية بالرئيس **حافظ الأسد** ـ فكنتُ أقدم له بعض الهدايا الرمزية في المناسبات. وبفضل تلك العلاقة أستطيع بالفعل سحب البريد المسجل وغيره بدون هوية. كما أستطيع أيضا السفر إلى لبنان والأردن بالهوية حتى ولو كانت منتهية الصلاحية. لكني توقفتُ عن هذا كله لكي يتضح للسفير مدى أهمية دوري في السفارة. وبالفعل تعطل الكثير من أعمالها؛ ولا أدري ماذا فعل ذلك الرجل. المهم أن الجهات المعنية طلبت من السفارة موافاتها بما يفيد انتهاء خدمتي فيها لكي توافق على بديل لي. هذا ما أخبرني به السائق *عصام* الذي يقول المستشار *الشيخ* إنه من المخابرات هو الآخر.

هذا الإجراء كان مقدمة لفصلي من العمل على حد قول المستشار *الشيخ* أيضا؛ وبعد هذا مباشرة وافق السفير على تمديد بطاقتي الإدارية عن طريق حركة من حركاته المعهودة: "الأستاذ سيد احمد أين البريد ألا يوجد بريد منذ عدة أشهر؟". قلتُ له: بالتأكيد سيكون هناك بريد ولكنني لا أستطيع سحبه بسبب انتهاء صلاحية جواز سفري وبطاقتي الإدارية؛ رد عليّ منفعلا: "أنا أعلم أن جوازك غير صالح ولكني لم أكن أعلم أن بطاقتك هي كذلك. أكتب للوزارة حالا لتجديدها".

تم تمديد البطاقة وعادت الأمور نسبيا إلى وضعها الطبيعي؛ كان هذا عنابا لي واضح ولم يكن الأول ولا الأخير من نوعه. فكان يعاتبني لأتفه الأسباب. وقد حملني مرة مسؤولية عطب تعرضت له إحدى سيارات السفارة في حادث سير حيث كنتُ أقودها. وأجبرني على شراء القطعة التي تضررت على حسابي الخاص. وقد اشتريتُها بثمن غال من الأردن لعدم وجودها في سوريا في ذلك الوقت. على الرغم من أن سيارات السفارة مؤمنة كلها ضد جميع الأخطار. وكنا نستطيع تصليح السيارة بسهولة على حساب التأمين. كما فعل هو لسيارته الخاصة حين تعرضت لحادث خطير وهي محمّلة بكمية كبيرة من البندورة (سيأتي شرح ذلك لاحقا). وقال لي السائق *عصام* إنه أجبره أيضا على شراء قطعة مائلة.

يقول لي: "أنا ساعدتك كثيرا كي أجعل منك رجلا مهما ولكنك رفضت التعاون معي. كنت دائما في صف أعدائي. فضلت أن تكون من تبعة *ولد أحميدة* مثل *البار* متوهما أنه يستطيع أن ينفعك بشيء وهو لا بيده حيلة. فالسفارة للسفير ولا أحد سواه يستطيع أن يفعل فيها أي شيء؛ أنا عندي معلومات دقيقة تفيد بأنك تتاجر بالخمور. وكذلك بلغني أنك تدعي صفة إدارية غير صفتك الفعلية. وبيتك مفتوح مطعما للطلاب يهاجمون الدولة فيه ويهاجموني أمامك ولا تدافع عني ولا تطلعني على ذلك بالإضافة إلى أمور أخرى لا داعي لذكرها الآن. ومع هذا لم أخذ قرارا بمعاقبتك. وكان عليك أن تقدر هذا ولكنك لم تفعل".

ثم تابع خذ الأستاذ *الشيخ* مثالا وقدوة في هذا الشأن. *فالشيخ* حين يسمع شيئا لا يستطيع أن يستريح قبل أن يطلعني عليه. هذا هو دور الصديق الوفي. وعلى كل حال أنا لن أضرك للأسباب التي سبق أن ذكرت لك ولكن أعذرني إذا لم أنفعك. واسمح لي أقول لك بأن استراتيجيتك في معاملة الناس سواسية وكسب ود الجميع هي استراتيجية فاشلة: فالإنسان لا بد أن يكون له أصدقاء وله أعداء. فحين يكون أصدقاؤه هم الأقوى يكون قويا وحين يكونوا في موقف الضعف يجري عليه ما يجري عليهم".

صحيح أني كنتُ أقدم نفسي على أني موظف إداري. وأنا فعلا أقصد ذلك. فلم أكن راضيا عن مهنة السائق من جهة ومن جهة أخرى أنا أحمل بطاقات إدارية بهذه الصفة. وعلى كل حال فالسائق في النهاية هو موظف إداري ولا أرى خطأ في هذا الأمر. أما بيع الخمور. فأنا هو الوحيد الذي يعارض عمل التهريب بشكل واضح فكيف ببيع الخمور (أعوذ بالله) !!!. هذه هي الحقيقة وما عداها فهو خلط للأمور وهو نهج ينتهجه البعض. فحين يختلف معك يستطيع أن يفتري عليك ما يشاء؛ ولكي يخلق مبررا لعاقبتي وجه إلي إنذارا فقال لي: "عليك أن تعيد النظر في علاقاتك بالطلاب وخصوصا استقبالك لهم في منزلك. إما أن تتوقف عن ذلك خلال أربع وعشرين ساعة أو سيكون لي موقف معك".

وبهذا وضعني أمام اختيارين أحلاهما مر: فأنا محتاج إلى ما يشبه الراتب الذي أتقاضاه شهريا من السفارة. وفي نفس الوقت لا أستطيع ـ على الإطلاق ـ أن أطرد أحدا من منزلي مهما كلفني ذلك. وعند عودتي إلى منزلي أطلعتُ زوجتي على هذا الأمر وطلبتُ منها أن تشير عليّ بما ينبغي فعله ولكن لم يكن لديها رأي واضح في هذا الشأن. وعندما وصلتُ إلى السفارة في الصباح دخلتُ عليه في مكتبه فنظر إليّ وقال لي: "أيه ماذا فعلت بخصوص الموضوع الذي تحدثنا فيه أمس". قلت له: سعادة السفير أنا اكتشفتُ أن المنزل ليس منزلي. فهو منزل أهل (موريتان) وأنا لا استطيع أن أمنعهم من دخوله. وكنتُ مقتنعا بأنه سيتخذ قرارا بفصلي من العمل. بسبب هذا الموقف ولكنه اكتفى بأن نظر إليّ نظرة تقزم وقال: "يا سلام أيه لكتشاف ده؟ ده أنت فيلسوف بآ".

وعلى ذكر الطلاب والمتدربين. المدنيين والعسكريين الذين كانوا يدرسون في سوريا. تعود بمزيد من التعليق على علاقاتي معهم: فقد استطعتُ بفضل الله وحسن النية أن أبني علاقات جيدة مع جمهورهم دون تمييز. فكنتُ أتعاطف معهم وأشاركهم محنهم. وبدورهم كانوا يحترمونني ويتزلوني منزلة الأخ الأكبر. ويدعونني لحضور نشاطاتهم الثقافية المختلفة. وقد استفادت السفارة من علاقاتي معهم لتمرير رسائل الود بينها وبينهم. وكذلك لتهدئة الخواطر أثناء اعتصاماتهم في السفارة التي تقع من وقت لآخر. بسبب تأخر صرف المنحة في موعدها. وكانوا يخجلون من العبث بممتلكات السفارة أثناء وجودي في الوقت الذي كانت فيه علاقاتهم بالسفارة شبه مقطوعة. مما شاع وتردد صداه في أوساط ذويهم في موريتانيا. وقد أثار هذا الأمر غيرة بعض الدبلوماسيين ودفعه إلى محاولة ربط صلة ما بهم ولكن أغلبهم لم يستجب لذلك باعتباره جاء متأخرا.

وكان الدبلوماسي الوحيد الذي تعاطف معهم ـ في أطول اعتصام لهم في السفارة والذي استمر لأكثر من أسبوعين في حديقة عامة أمام مبنى السفارة في فصل الشتاء القارس ـ هو المستشار *الشيخ ولد أحمدو*. فقد طلب مني أن أشير عليه بما يستطيع مساعدتهم به؟ فقلتُ له إننا نستطيع أن نقدم لهم بعض الوجبات لمواجهة ما يتعرضون له من قساوة الطبيعة في الوقت الذي كانوا فيه يفترشون الأرض ويلتحفون السماء. فأعطاني مبالغ نقدية لأشتري لهم بها بعض الوجبات الخفيفة بالإضافة إلى الشاي الأخضر وعلى مدى أيام عدة. وكنا نقدم لهم ذلك ليلا لكي لا يرانا أحد خوفا مما يثير غضب السفير؛ وقد تردد حين ذاك أن دبلوماسية في السفارة طردت مجموعة من الطالبات من منزلها في هذه الظروف.

ومن بين المتدربين العسكريين ضباط سامون كانوا يدرسون في الأكاديمية العسكرية السورية في دمشق وآخرون في نظيرتها بالمملكة الأردنية الهاشمية. أذكر منهم: العقيد *لبات ولد سيدي محمد* الذي كان يزورنا في دمشق قادما من الأردن في العطل القصيرة أثناء السنة الدراسية.

ومن ضمن احتقاره للعمال وقساوته معهم كان السفير *محمد فاضل* يتهم السائقين بسرقة البنزين، وأصدر أمرا بأن يسجل عداد السيارات عند تزويدها بالوقود كل مرة. وعند تزويدها به من جديد لا بد من أخذ رقم العداد السابق للمقارنة. وبهذا أصبحتُ أعرف المسافة التي تقطعها السيارة بكل كمية بنزين، وكم يبعد مقر السفارة من كافة الدوائر الحيوية في مدينة دمشق.

ولم يكن الهدف من هذا التشدد هو حسن التسيير طبعا. فالبنزين كان يستهلك بسخاء في تدريب عقيلته وأحد عماله على قيادة السيارات في مختلف سيارات السفارة. وللتغطية على هذا الأمر جعل من مراقبة استهلاك الوقود قصة تعاد في الأسبوع أكثر من مرة. وكانت السيارة التي أتولى قيادتها هي المفضلة عندهم للتدريب. ولذلك ينفد مخزونها من البنزين بأسرع من السيارات الأخرى. وفي إحدى المرات كنا نتحدث في هذا الشأن. فقلتُ له: سعادة السفير هناك من يستخدم السيارة بعد نهاية الدوام. قال لي: "من هو الذي يستخدمها؟ هذا غير صحيح. وعلى كل حال راقب لي هذا الأمر وسوف أحملك المسؤولية إذا ثبت عكسه".

وفي محاولة منه لتفنيد ما أقول أمر عقيلته بأن تستخدم إحدى السيارات الأخرى؛ وفي وقت لاحق قال لي: "هل لاحظت أن السيارة تم استخدامها بعدك". قلت له: لا؛ فنظر إليّ نظرة فاحصة كما لو أنه يقول لي: ...... وفي مرة أخرى عدنا للحديث في هذا الموضوع فدعاني للجلوس في مكتبه وطلب مني أن أصرح له بحقيقة ما يدور في ذهني بخصوصه. قلت له: سعادة السفير أنا متأكد أن السيارة تستخدم خارج أوقات الدوام. قال لي: "من الذي يستخدمها. *عصام* أم *دمبا صال*؟".

قلت له: "تستخدمها المدام *واحميد* لتعلم قيادة السيارات. قال لي منفعلا: "أنت متأكد من هذا الكلام؟ هذا خطير جدا وسوف نتابعه للوقوف على حقيقته. وإذا كان غير صحيحا لا تلمن إلا نفسك". وتوقف الأمر عند هذا الحد.

نعود إلى موضوع حادث سيارة السفير الخاصة: عاد سعادته من لبنان مساء أحد الأيام ومعه السائق *دمبا صال* والسيارة محمّلة بمختلف أنواع السجائر، وكان الفصل شتاء والجليد يغطي معظم الطرق الجبلية والسائقون الموريتانيون لم يتعودوا على قيادة السيارات فيه. وفي (واد النون) على الطريق الرابط بين دمشق والحدود مع لبنان كان السفير يجلس على الكرسي اليميني الخلفي حيث جرت العادة أن يجلس كبار المسؤولين. وأمام سيارته سيارة "شاحنة" تابعة للجيش السوري. وكانت تسير بحذر بسبب تراكم الجليد. وفجأة لامس سائقها الفرامل لتخفيف السرعة فقام السائق *صال* بالضغط على فرامل المرسيدس **280** فتزحلقت بشكل عنيف واصطدمت بمؤخرة الشاحنة العسكرية مما أدى إلى تحطم واجهتها بالكامل. في حين لم تصب الشاحنة العسكرية بأضرار تذكر.

(جَاتْ سليمة) كما يقول المثل السوري. ولو أن المثل الموريتاني يقول: **(ألّ امْكَرْشْ لَعْظَامْ ما إِرَادِسْ)** فاعتذر السفير لسائق الشاحنة ومرافقه وطلب منهما المساعدة لسحب السيارة إلى دمشق ووعدهما بمكافأة قيمة **(خمس الاف ليرة سورية)** فاستجابا لتودده وتم سحب السيارة إلى منزل السفير في دمشق ووضعت في مرآب السيارات. وقام السائق *صال* - في نفس الليلة - بتحويل حمولتها إلى سيارة المرسيدس الرسمية.

وبعد الحادثة بأيام كلف السفير السائق *عصام عوض* بمهمة إصلاحها على حساب التأمين. وقد تطلب هذا الأمر استدعاء أحد عناصر شرطة المرور لتحرير ضبط بحادث **"وهمي"** مقابل رشوة بمبلغ مماثل للذي دفع مقابل سحب السيارة من مكان الحادث إلى منزل السفير بمدينة دمشق. وفي هذا الضبط وثق الشرطي أن سبب الحادث هو اصطدام السيارة بشجرة كبيرة أمام منزل السفير؛ وكان لابد من التصريح بأن الشجرة لم تصب بأذى لأن سلامتها تهم البلدية؛ وقد بلغت تكاليف إصلاحها: **مائة وخمسة وعشرين ألف ليرة سورية**. ما يعادل: **2500 دولار)** على حد قول زميلي *عصام* و*دمبا صال*.

نعود أيضا إلى قصة الجواز لمزيد من الشرح: حين طرحت موضوعه على السفير قال لي: "أنا لا أستطيع إعفاءك من رسوم التمديد، لأن هذه الرسوم مقررة بموجب قانون صادر عن "اللجنة العسكرية للخلاص الوطنية" أعلى سلطة في البلاد والقانون فوق الجميع. وزيادة على ذلك فالطوابع المالية ليست متوفرة لدينا الآن. لنتظر حتى نرى كيف سنتدبر الأمر وعندها سوف أعبرك مبلغ الرسوم على أن ترده لي فيما بعد".

وفي وقت لاحق كان المستشار الشيخ يريدني أن أذهب معه إلى لبنان. ولم يكن على علم بموضوع الجواز. فقلت له: إن جواز سفري انتهت صلاحيته ولذلك لا أستطيع السفر. فقال لي: "والسفير لديه علم بهذا الأمر؟". قلتُ له نعم. فدخل السفير في مكتبه وقال له: "سعادة السفير أنتم كلفتموني بالشؤون القنصلية ومن المفروض أن أكون أنا هو المعني بتمديد صلاحية جواز سفر سيد احمد. على الأقل إذا كان فيه تجاوز للقانون أنا أتحمل مسؤوليته عنكم".

وكان كلام المستشار يحمل عتابا واضحا للسفير مفاده: "أنتم تتدخلون في الصلاحيات التي منحتموني". ـ *فالشيخ* كان مكلفا بالشؤون القنصلية والثقافية. ولكن هذا التكليف مجرد حبر على ورق ـ فرد عليه السفير: "أنا قلت لسيد احمد، حين طرح عليّ الموضوع، هذا يعني الأستاذ *الشيخ*؛ اذهب إليه وهو يفتيك بخصوصه". خرج الشيخ من مكتب السفير وهو غضبان واستدعاني في مكتبه وقال لي: "يا أستاذ سيد احمد كن واضحا. السفير قال لك أن تراجعني في موضوع الجواز وما قلت لي مخالف لذلك". قلتُ له: ما قلتُ لكم يا أستاذ هو الذي حصل.

وبعد انتهاء الدوام ونحن نستعد لمغادرة السفارة، قال لي السفير: "الأستاذ سيد احمد، يبدو أنك لم تسمع جيدا ما قلت لك بخصوص الجواز. أنا قلت لك أن تذهب إلى الأستاذ الشيخ وتكلمه في الموضوع". فلم يكن أمامي سوى الصمت، لأنه من غير المعقول أن يقوم سائق بتكذيب سفيره أمام معاونيه.

وفي طريقنا لإيصال *الشيخ* إلى منزله كالعادة قال لي الأخير: "الأستاذ سيد احمد أنت سمعت ما قاله السفير؟". قلت له: سمعته ولكن أنا لا أكذب يا أستاذ؛ فنظر إليّ نظرة فاحصة، قال لي فيما بعد إنه تأكد في تلك اللحظة من أني صادق.

وفي هذا الجو حصلت حادثة أخرى: كنت أقوم بصرف منح الطلاب في قاعة للاستقبال في مبنى السفارة؛ ويتكون هذا المبنى من شقتين إحداهما تضم مكتب السفير والسكرتارية، والثانية تضم مكتب المستشار والمحاسب وصالة للاستقبال حيث يوجد مكتب كنتُ أستخدمه لصرف المنح. وفي تلك الأثناء خرج السفير ولم يكن سائقه موجودا فأمرني بأن أوصله إلى منزله. ففعلتُ درج المكتب وذهبتُ وتركتُ الطلاب في انتظاري. وعند عودتي وجدتُ الكاتبة قد أغلقت مدخل السفارة الرئيس وذهبت.

فدخلتُ من مدخل الشقة الثانية فلدي مفتاح له وفتحت درج المكتب بحثا براغي، لأن الكاتبة ذهبت بمفاتيح السفارة كلها بما فيها مفتاح درج المكتب الذي كنتُ أستخدمه، على اعتبار أني موجود في الصالة مع الطلاب وأنا كنتُ أقدر أني سأعود قبل ذهابها. وفي تلك الأثناء دخل *الشيخ* مكتب السفير لإجراء مكالمة هاتفية حيث يوجد الخط المباشر الوحيد في السفارة.

ولمكتب السفير بابان، واحد داخلي والثاني خارجي. وتعودت الكاتبة على إغلاق الباب الخارجي، وحين انتهت مكالمة *الشيخ* وأراد الخروج وجد نفسه محاصرا داخل المكتب، فصار ينادي بصوت عال على الكاتبة: "افتحي الباب افتحي الباب". فأخبرني أحد الطلاب ـ ساخرا من هذا الأمر ـ بوجود شخص ينادي من داخل الشقة الثانية. وعندما استطلعتُ الأمر تبين أنه الأستاذ *الشيخ* وعلى الرغم من أن السفير يقول له دائما إن الهاتف تحت تصرفه متى شاء فكان يفضل استخدامه في غيابه.

فاتصلتُ بالسفير، لأن مفتاح المكتب لا يوجد إلا عنده هو وكاتبته، والأخيرة ليس لديها هاتف ومنزلها بعيد من السفارة، فبعث لنا المفتاح مع سائقه وفتحتُ عن *الشيخ* والعرق يتصبب من جسده، في حالة شديدة من الغضب وهو يردد: "من قفل عليّ الباب؟ هذه الكاتبة مجنونة.... كيف تغلق الباب هكذا دون انتباه؟ بالتأكيد أنها فعلت ذلك قصدا". قلتُ له ـ في محاولة للتخفيف من غضبه ـ وأنا أيضا ذهبت عني بالمفتاح وأغلقت الباب على ملفات الطلاب التي تحتاج مراجعتها من حين لآخر، مما أجبرني على فتح درج المكتب بالقوة.

وفي الغد وصل *الشيخ* وأثار الموضوع من جديد. فبحكم علاقاته مع السفير كان يقوم بإرهاب الجميع بشكل غير مباشر، والسفير يبدي له نوعا من الاستعداد الصوري لمعاقبة من لا يرضى عنه. ولذلك فتح تحقيقا مطولا في هذا الموضوع؛ ولتضخيمه قال للسفير إن الكاتبة أغلقت كذلك الباب على ملفات الطلاب مما دفعني أنا إلى فتح الباب بالقوة.

وفي ذلك الوقت كنا في حالة استنفار أمني على أثر أحداث بلادنا مع السنغال في العام 1989 وكان السفير يقوم من حين لآخر بتحريات أمنية على مستوى السفارة دون علمنا؛ فطلبني السفير في مكتبه وسألني عن كيف دخلت السفارة بعد مغادرة الكاتبة؟ وكيف فتحت الباب بالقوة؟ قلت له: إني دخلتُ من باب الشقة الثانية، وأن الذي فتحتُ بالقوة هو درج المكتب وليس الباب. قال لي: «الأستاذ الشيخ أخبرني أنك قلت له إنك فتحت الباب الفاصل بين الشقتين بالقوة".

قلتُ له: ـ ببراءة تامة ـ الأستاذ الشيخ كان متوترا ويبدو أنه لم يتمكن مما قلتُ له. رد عليّ منفعلا: "أنت تقول إن الأستاذ الشيخ مجنون وأنه يكذب، *الشيخ* هو أصدق بني البشر على الإطلاق". قلتُ له: سعادة السفير ليس هذا ما قصدتُهُ. وبعد هذا بقليل استدعاني *الشيخ* في مكتبه وهو يبتسم وقال لي: "يا أستاذ سيد احمد كان باستطاعتك أن تدافع عن نفسك دون أن تكذبني أو تعتبرني مجنونا، ولكن اطمئن لن يلحق بك ضرر بسببي. ولو أن هذا الأمر كان يمكن أن يؤدي بك إلى فقدان وظيفتك".

قلتُ له: يا أستاذ أنا لم أقل إنك مجنون ولا إنك تكذب. وعلى كل حال هي ليست وظيفة يؤسف على فقدانها. وبعد ذلك أخبرني الشيخ أن السفير قال له بصريح العبارة بأني قلتُ إنه قد جن وأنه مستعد لفصلي من العمل إذا كان الشيخ يريد ذلك.

وعلى الرغم من هذا كله فكان سعادة السفير *محمد فاضل ولد الداه* هو أول من كتب إلى وزير الخارجية يطلب لي الاكتتاب رسميا. وهذا فضل سأظل أحفظه له. ولو أن اكتتابي في النهاية لم يتم بناء على طلبه؛ وكان يثني عليّ أمامي وبلغني أنه يفعل ذلك في غيابي. وقد تكرر هذا الثناء أكثر من مرة حتى بعد مغادرته سوريا بفترة طويلة. وكان آخره بحضور الأمين العام لوزارة الشؤون الخارجية والتعاون. السيد *خطري ولد جدو* أمام مكتبه في الوزارة. فقال له: "سيادة الأمين العام هذا سيد احمد ولد مُبارك وهو شخص مثالي في الوطنية. أفضل تمثيلا للوطن من الكثير من سفرائنا ودبلوماسيينا في الخارج وأنا أولهم".

وبعد مغادرته سوريا وصلت له عدة رسائل في بريد السفارة واردة من مصرف في باريس بفرنسا. فيها كشوف حسابه في ذلك المصرف. وكنتُ أجمعها وأبعثُها إليه في القاهرة. وقد دفعني الفضول مرة إلى فتح إحداها ـ علما أنها كانت تأتي كلها مفتوحة من المصدر ـ وفي ذلك الكشف الذي اطلعتُ عليه رصيد كبير من الدولار يبلغ: **(510.000)**.

ولو شاء اللّه أن هذه الرسائل وصلت ليد غير أمينة لتم استغلالها إعلاميا ضده. وقد أعرب لي عن امتنانه لهذا الأمر في رسالة شكر بعثها إليّ تضمنت عبارات ود طيبة، وأعرب لي فيها عن رغبته في أن ألتحق به في القاهرة. للعمل معه في السفارة لتعويض ما حصل من نقص في دمشق على حد تعبيره. وقد يقول قائل إنه كان عليّ بالمقابل أن أستر نواقصه في هذه المذكرات. ولكن ما أتناوله هنا هو شخصيته العمومية؛ ولو كنتُ لأستر نواقص أحد في هذا العمل لكان أولى بي أن أستر نواقص (ربي) "*محمد محمود ولد ودادي*" كما كان هو يردد دائما.

وطيلة عملي معه لم يستجب لرأي إلا مرة واحدة، وكان ذلك لصالح طلاب سنغاليين. كانوا يدرسون في مدارس موريتانية في بلدهم، ولديهم كشوف درجات ـ لا تحمل أي توقيع رسمي ـ صادرة عن تلك المدارس. فقد راجعوا السفارة يريدون تصديقها ليتمكنوا من التسجيل بها في المدارس السورية، فقالت لهم الكاتبة أن ينتظروني، لمعرفتها بتشدد السفير. وحين وصلتُ شرحت لي وضعهم وطلبت مني محاولة إقناع السفير بالموافقة على تصديق وثائقهم نظرا لحاجتهم لذلك.

فهم غرباء ولا يتكلمون اللغة العربية بطلاقة، ولا توجد لبلادهم سفارة في سوريا، ولا حتى أية بعثة دبلوماسية من إفريقيا السوداء، مما جعلنا نتعاطف معهم، الكاتبة وأنا، إلى درجة أننا فكرنا في أن نصدق لهم وثائقهم تجاوزا في حال رفض السفير ذلك؛ فأخذتُ الوثائق ودخلتُ على السفير وشرحتُ له وضعيتهم، قال لي: "عجبا يا أخي، نحن والسنغال على أبواب الحرب وأنت تطلب منا تصديق وثائق طلابهم".

قلتُ له: سعادة السفير هؤلاء طلاب ولا ذنب لهم في الخلافات السياسية، والوثائق التي يحملون صادرة عن مؤسسة تعليمية موريتانية. رد عليّ: "أنت لو كنت مكاني تصدقها لهم"؟. قلتُ له: نعم، وأنا مستعد الآن إذا أردتم أن أصدقها لهم وحين تظهر مشكلة حملوني المسؤولية. فنظر إليّ نظرة مطولة وقال لي: "طيب قل للكاتبة أن تقم بإجراءات التصديق وتأتيني بالوثائق للتوقيع".

وبعد ذلك بأيام عادوا إلينا، وهذه المرة يريدون وثائق رسمية من السفارة، فهم يحملون جوازات سفر سنغالية والمعلومات الواردة فيها باللغة الفرنسية، والسلطات السورية تطلب ممن يحملون جوازات أجنبية ترجمة المعلومات الواردة فيها إلى اللغة العربية، ما يعرف عندهم (**بإخراج قيد**) فلجأ الطلاب إلينا من جديد، فدخلتُ على السفير وأطلعتُهُ على مشكلتهم الجديدة، فقال لي: "أنت بالتأكيد سوف تتسبب لنا في مشكلة كبيرة بهؤلاء السنغاليين، نصدق لهم وثائق صادرة عن مؤسسة تعليمية موريتانية فهذا نصف مصيبة، أما أن نصدر لهم وثائق رسمية من السفارة فتلك مصيبة تامة".

قلتُ له: سعادة السفير: **إِلَّ عَدَّلْ عَيْشْ مَا يَقِلْبُ إِدَامْ**. ابتسم وقال لي: "طيب يا فيلسوف سيد احمد **أمرنا لله**. أصدر لهم الوثائق المطلوبة إذا كنت مصرا على أن **تُوَدينا في ستين داهية**". وبعد أسابيع إذا بهم يعودون وقالوا للكاتبة إنهم يريدونني شخصيا. وقبل وصولي إلى السفارة وصل السفير ووجدهم أمامه فسأل الكاتبة عنهم قالت له: "هؤلاء الطلاب السنغاليون يريدون سيد احمد". قال لها: "سيد احمد هذا لن يهدأ حتى يورطنا مع هؤلاء السنغاليين، حين يصل يدخل عليّ مباشرة".

وعندما وصلتُ دخلتُ عليه فقال لي: "ماذا يريد طلاب السنغال؟ لعلهم يريدون جوازات سفر موريتانية؟ **شَوْفْ أَحْنَ** عملنا لهم المستحيل والآن عليهم أن يتدبروا أمورهم بأنفسهم". خرجتُ إليهم لمعرفة ماذا يريدون فقالوا لي: "نحن تم قبولنا في ثانويات مختلفة والفضل يعود لكم، وقد جئنا لنقدم الشكر لكم على ذلك". فأدخلتهم على السفير وقدموا له الشكر، وقد ارتاح لذلك كثيرا والتفت إليّ وقال لي: "الفضل في هذا كله يعود لك أنت وحدك".

وقبل فترة من تحويله من سوريا سافر إلى موريتانيا وتولى الأستاذ *الشيخ* مهمة القائم بالأعمال بالنيابة، (وما أشبه اليوم بالأمس) فلم تكن مهمته قائما بالأعمال أفضل حال من تكليفه بالشؤون القنصلية والثقافية؛ فالقائم بالأعمال الفعلي هي زوجة السفير: فكانت تصدر الأوامر للكاتبات باطلاعها على مراسلات السفارة، كما تصدر الأوامر أيضا للسائقين، وحتى المحاسب دون اعتبار لوجود القائم بالأعمال.

وقد تصادف هذا الوضع مع استعداد زوجتي للمشاركة في امتحانات الثانوية العامة ولذلك أخبرتُ (القائم بالأعمال) بأني سأكون مضطر للبقاء في المنزل مع ابني الصغير أثناء غيابها، وبالطبع وافق على ذلك وقال لي: "قل للسائق *صال* أن يتولى مهامك اليومية حتى تنتهي فترة الامتحانات".

ومن ضمن هذه المهام أخذ القائم بالأعمال كل صباح من منزله إلى المكاتب وإرجاعه إليه بعد انتهاء الدوام الرسمي. فأبلغ السائق *صال* السيدة حرم السفير بهذا الأمر فقالت له: "من الذي أمر بهذا؟". قال لها: *الشيخ*. قالت له: "*الشيخ* مَنَهْ ؟ لا تذهب إليه ولا إلى السفارة". وأصدرت أمرا مماثلا للسائق *عصام*. وحاولت أن تعطيني نفس الأوامر ولكني رفضتُ بطريقتي الخاصة.

و قبل هذا بأيام كانت السيدة عقيلة السفير قد ذهبت إلى إحدى المدن الداخلية في جولة سياحية ومعها السائق *عصام*. دون علم القائم بالأعمال. وبعد عودته استدعاه وقال له: "أنت مجنون لماذا تغيب عن العمل دون مبرر؟". قال له: المدام ـ هكذا يدعوها العمال السوريون ـ هي التي أمرتني بذلك. رد عليه: "من هي المدام؟ المدام امرأة ولا قيمة لها. أنا هو رئيس البعثة وليس المدام".

وقبل هذا بقليل كان القائم بالأعمال يتكلم معها في الهاتف وتصور أن المكالمة قد انتهت ووضع السماعة دون أن يغلقها بشكل جيد. في حين ظلت هي ترفعها. ولذلك استمعت لما قال للسائق. وحن وصلتُ إلى منزل السفير بعد هذه الملاسنة قالت لي حرمه: "*أمّالو الشيخ* هذا قد جن؟ لماذا يتكلم عني بهذا الشكل. لقد سمعته يتحدث مع السائق ويتلفظ اتجاهي بعبارات غير لائقة". قلت لها: هذا غريب.

ووافق الأمر أنه بنزلها منزلة خاصة. يقول لي دائما إن طلباتها أوامر. فهي بالنسبة له: زوجة صديقه من جهة. وزوجة السفير من جهة ثانية وهي امرأة من المجتمع الموريتاني من جهة ثالثة. ولذلك فهو مستعد لخدمتها بنفسه. أحرى أن يضع تحت تصرفها إمكانيات السفارة. ولكن مع قليل من الاحترام أمام العمال (مشاورة فم الگربّه). وكان واضحا لنا جميعا أنها تتصرف بأوامر من السفير.

فضل القائم بالأعمال استخدام سيارات الأجرة في تنقلاته من وإلى السفارة على المواجهة معها. وعندما علمت بذلك تراجعت عن قرارها مدعية أن السائق لم يشرح لها الوضع بما فيه الكفاية؛ ولم يسلم منها المحاسب فكان له نصيبه من التوبيخ. قال لي إنها اتصلت به بالهاتف وهو في الحمام (أكرمكم الله) وعندما تأخر في الرد عليها أمرت الكاتبة بأن تدق عليه باب الحمام. وحين خرج اتصل بها ووبخها: قالت لي بنفسها إنه قال لها: "أنت حمارة".

وقد أدى هذا الأمر إلى سوء تفاهم شديد بين الأطراف الثلاثة: السيدة حرم السفير والقائم بالأعمال والمحاسب كانت. وفي هذا الصدد أعرب لي القائم بالأعمال عن تقديره الكامل لموقفي المحايد. والذي وصفه بالموقف الشجاع.

وفي هذا الجو الساخن عاد السفير عن طريق الأردن ـ وبدلا من أن يخبر القائم بالأعمال بموعد وصوله. لاتخاذ الإجراءات اللازمة لاستقباله ـ أمر زوجته بأن تبعث له السائق *عصام* لاستقباله في مطار عمّان الدولي. وقد عاد في وقت متأخر من الليل مشحونا بالغضب على الجميع. وقد تبنى رواية عقيلته في هذا الخلاف.

وفي اليوم التالي علمنا بوصوله. وبعد انتهاء الدوام الرسمي ذهبنا إليه في منزله. وقد تبادل السلام مع *الشيخ* ببرودة تامة. أما أنا فقد مد لي رؤوس أصابعه وسحبهم مني بسرعة. وفي مساء نفس اليوم كان *الشيخ* مدعوا إلى حفل مبرمج من قبل وصول السفير فجئت إلى المنزل وأخذت السيارة وذهبتُ إليه دون المرور بالسفير. وبعد عودتي أردتُ الدخول عليه لأعطيه تقريرا شفهيا عن سير العمل في غيابه كما جرت به العادة. وقد تأخر كثيرا في استقبالي وحين دخلتُ عليه كانت العاصفة:

"من أنت؟ أنت *مَنْهُوّ*؟ أنت تحتقر الناس؟ تتصرف كما لو أن لا أحد هنا. كأن البيت مقبرة؟ من أنت؟ نحن هم الذين صنعناك. لولانا كنت اليوم في الشارع. عد إلى حجمك الطبيعي. أنت تجاوزت حدودك: من أنت ومن هو *الشيخ*؟ *الشيخ* رجل مسكين أنا هو الذي جعل منه دبلوماسيا. كيف تطيع أوامره وتعصي أوامر آمنة"؟.

كان هذا أمام زوجته وأولاده. قلتُ له: سعادة السفير أنا كنتُ أطيع أوامر *الشيخ* تنفيذا لأوامركم. تذكرون أنكم قلتم لي إنه صديقكم وعليّ أن أنفذ أوامره كما هو الحال بالنسبة لكم تماما. سواء أثناء وجودكم أو في غيابكم. *وآمنة* ها هي أمامكم لم أقصر معها في شيء. وقد حاول أكثر من مرة أن يوقفني عن الكلام: "**أسكت عني أسكت عني. أُوْخَطْ عني أُوْخَطْ عني**". ولكني رفضتُ. فكنتُ أتكلم بعيدا عن تأثير الخوف أو الطمع: تدخلت زوجته بجباء وقالت: "لا. لا سيد احمد لا عيب فيه المشكلة في الآخرين".

وفي هذه اللحظة اتخذتُ قرارا بالاستقالة. على الرغم من سوء وضعي المادي لكن الكيل قد طفح. أما المحاسب فقد استدعاه في المنزل نفس اليوم. وعلى حد قوله: "هذا **الزّاجل** مجنون كاد يضربني. لقد مسك بتلابيبي وشدني إليه. ولو لا أني مسكت بيديه وضغطت عليهما حتى تراجع لكان ضربني". وقد أكد لي المستشار الثاني ***محفوظ ولد محمد أحمد*** في حديث لاحق أنه ضربه بالفعل.

وبعد وصوله بيوم واحد طلب موعدا مع نظيره اليمني بدمشق وكنتُ معه. وعندما خرج اليمني يودعه تقدمت لأسلم عليه. فكنتُ أعرفه معرفة طيبة فسلم عليّ بحرارة والتفت إليه وقال له: "سعادة السفير خذ سيد احمد معك إلى صنعاء". عندها عرفتُ أنه محوّل. وكان هذا خبرا سارا بالنسبة لي. وعلى الرغم من فرحتي به فقد كتمته حتى أعلنه هو شخصيا.

عاد إذن من موريتانيا وهو محوّل إلى صنعاء باليمن ولكنه ما يزال يتكتم على ذلك. ويبدو أن إفشاء السفير اليمني لهذا السر هو الذي عجل من إعلانه هو له في وقت قصير بعد ذلك؛ وقبل مغادرته حاول بشكل واضح أن يوقع بيني وبين المحاسب وكذلك بين الأخير والمستشار *الشيخ*. بالوشاية أحيانا وأحيانا بالتحريض المكشوف؛ اتضح ذلك عندما طلب منه المحاسب سائقا ليوصل زوجته إلى مكان مدعوة فيه. فقال له عند نهاية الدوام سيذهب إليها سيد احمد بعد أن يوصلني. وعند وصولنا إلى المنزل قال لي: "أنت تعبان ***والبار*** يستطيع إيصال زوجته بنفسه. خذ الهاتف واتصل به وقل له إن السيارة تعطلت".

ولكي لا يترك لي فرصة الاعتذار للمحاسب بطريقتي الخاصة جلس على كرسي أمامي ينتظر النتيجة. اتصلتُ بالمحاسب وقلتُ له: السيارة يبدو أنها تعطلت. فقال لي: "تعطلت أم عطلت؟". قلتُ له: المهم أنها تعطلت. قال لي: "أين تعطلت"؟ قلت له: قرب البريد؛ وكان البريد المركزي بعيدا من منزل السفير مسافة كيلو مترين اثنين على الأقل. ولكن يوجد منه فرع قريب من منزل السفير. وهذا الفرع هو الذي كنتُ أقصدُهُ. فسألني السفير عما إذا كان المحاسب أقتنع بما قلتُ له؟ أجبته: لا أظن ذلك.

أوصل المحاسب زوجته إلى المكان الذي هي مدعوة فيه. وفي العودة مر من أمام منزل السفير ليرى السيارة واقفة هناك. فجاءني في منزلي وقال لي: "أنت قلت إن السيارة تعطلت قرب البريد وهي موجودة الآن أمام منزل السفير". قلتُ له: وما معنى هذا؟ قال لي: "هذا معناه الكذب". فلم أستطع الرد عليه بسبب ضعف موقفي.

وفي الصباح أخبرتُ السفير بأنه أساء إليّ. في إشارة إلى أنه هو الذي تسبب لي في ذلك. قال لي بتهكم: "واضح أنك لست من أهل (**الشّرّكْ**). لو أنك منهم كنت صفعته بيدك على الوجه حتى يتعلم كيف يحترم الناس الآمنة في بيوتها. كيف تقبله يسيء إليك وأنت في منزلك وخارج أوقات الدوام الرسمي".

كان هذا تحريضا واضحا. ولكني بدلا من التجاوب معه ذهبتُ إلى المحاسب في مكتبه وقدمتُ له اعتذاري عنما حصل. وبدوره اعتذر لي. وقال لي إنه يعرف تماما أن السفير هو السبب وأنه هو المقصود بما قال.

وفي 1990/09/13 غادر السفير ***محمد فاضل ولد الداه*** وأسرته سوريا نهائيا. وقد نقلتُ له أمتعته الشخصية (وغيرها) إلى موريتانيا مجانا. بفضل علاقاتي الشخصية مع أصحاب شركات الطيران. وخاصة السيد **عبد المجيد أكرم**. مندوب الخطوط المغربية: فقبل سفره بأيام بدأ يجاملني كعادته كلما تعلق الأمر بمصالحه الخاصة: "الأستاذ سيد احمد **شد حيلك** العفش كثير وهذه مسؤوليتك. أنت هو رجل المهمات الصعبة". فذهبتُ إلى مندوب الخطوط المغربية وطلبتُ منه أن يكون على استعداد لمساعدتنا في هذا الأمر فقال لي: "إذا كان الوزن معقولا لن تكون هناك مشكلة. وإذا كان كثيرا تدفعوا أنتم على جزء منه ونسكت نحن عن الباقي".

إلى هنا كنتُ أتصور أن يكون الوزن في حدود: (**خمسمائة كيلو غرام**) على أبعد تقدير. فأخبرت السفير باستعداد مندوب الخطوط المغربية لمساعدتنا وعلى هذا الأساس أعطاني مبلغ: **خمسا وأربعين ألف ليرة سورية** لتسديد أجور الوزن الزائد المتوقع؛ وحين وصلنا المطار تبين أن الوزن فوق التقديرات بكثير: (**طن وسبعمائة كيلو وأربعون كيلو اغرام**): قال لي **عبد المجيد**: "أبو جمال هذا المبلغ الذي معك لا يساوي شيئا بالنسبة لهذا الوزن. حاول أن تقنع موظف الخطوط السورية ـ المسؤول عن الميزان ـ وإذا سكت عن الحق السوري أنا أسكت عن الحق المغربي". ولم يتردد الموظف السوري في الموافقة.

وكنتُ أتصور أن السفير سوف يعطيني ذلك المبلغ لأقدمه هدية لأصحاب الخطوط مقابل هذه الخدمة الكبيرة. ولكنه لم يفعل فقد استرجعه بكل سرور وأخذني على انفراد وقال لي: "شكرا جزيلا. هذا عمل جبار. ولا استغراب في ذلك. فقد عرفناك دائما صاحب المهام الصعبة ويبدو أنك ما زلت. خذ هذا المبلغ المتواضع هدية مني لك: (**مائة دولار أمريكي**) و"**الْوَاعِرْ السّتْرَه وأسْمَاح**". قلتُ له: السماح سامح لكم أما الستره فلا أستطيع أن أعدكم بها.

وبعد وداعنا للسفير وأسرته في المطار قال لي القائم بالأعمال: "لنعد مباشرة إلى منزل السفير". وعند وصولنا إليه وجدناه مثل "حفرة عر" (بشرب منها ويستحم فيها...) لا شيء فيه من الأثاث الراقي والأواني الجميلة التي نعرفها جميعا. حتى السكاكين والشوك والملاعق؛ وكان معنا السائق *عصام* الذي أشرف على لم ذلك الأثاث وترتيبه بشكل محكم داخل **كراتين** كبيرة من الورق. وحين سأله القائم بالأعمال عن كيف حصل هذا الأمر؟ أجابه بأنه قام بما قام به بتعليمات من السفير وحرمه عندها تذكرت بعد نظر السفير *محمد محمود ولد ودادي* حين استدعانا جميعا بما فينا العمال السوريين في السفارة لحضور تسليم العمل عند مغادرته. مما اعتبرناه ـ المحاسب وأنا ـ حينها أمرا مبالغا فيه.

وبحسن نية أو جهلا للإجراءات الإدارية السليمة وقع القائم بالأعمال على محضر تسليم العمل. في الوقت الذي ما تزال فيه أسرة السفير في المنزل وما يزال السفير نفسه يزاول عمله من مكتبه بالسفارة. بينما المفروض أن تتم هذه العملية قبل مغادرته بيوم واحد على أبعد تقدير أو في يوم السفر حتى؛ وقد طلب مني *الشيخ* أن أسجل له ـ بخط يميني ـ ما بقي في المنزل من أثاث. ولم أعد أتذكر بالضبط عدد تلك الموجودات ولا نوعياتها ولكنها لا تستحق الذكر بالمقارنة مع ما كان موجودا فيه من تجهيزات منزلية راقية.

وكانت طواقم هذه المواعين بأشكالها وأنواعها وأحجامها المختلفة. محفوظة في حقائب خاصة بها مقاومة للكسر. في رفوف خزانات كبيرة في أحد صالونات المنزل. ولكي تبدو الأمور طبيعة للناظر العادي فقد أفرغت هذه الحقائب من محتوياتها وتركت في أماكنها كما كانت. ولولا طلب *الشيخ* لما تم اكتشاف أنها فارغة.

وبمرارة ـ شديدة في النفس ـ يقول *الشيخ* إن مكيدة خبيثة دبرت له في هذا الشأن. حين طلب منه السفير وبالإلحاح توقيع محضر تسليم العمل قبل موعد السفر بحوالي أسبوع؛ والغريب أن رفض مطلقا أن يقول إن السفير المغادر هو الذي يتحمل المسؤولية. وبعد وصوله بفترة سألني السفير الجديد عن حقيقة اختفاء أثاث منزل السفير؟ فقلتُ له إن *الشيخ* يعرف ما جرى له. فقال لي: "سألته وأجابني بأنه لا يعرف عنه شيئا. وعندما ذكرته بأنه موقع على استلامه في محضر تسليم العمل قال لي: "كل شيء وجدتموني موقع عليه ولم تجدوه فمعنى ذلك أني أخذته".

وفي حديث مع الشيخ **بعد ذلك** سألتُه عن لماذا لم يطلع السفير على حقيقة هذا الأمر؟ فقال لي: "الكل يعلم أن هذا الرجل كان صديقي يوما ولا أريد أن يشهد عليّ أحد بأني أكلت لحمه في غيابه". قلت له: حتى بعد (**ألّ صار**). قال لي: "حتى بعد (**إلّ صار**)".

لم يكن وضعي المادي في عهد السفير *محمد فاضل ولد الداه* أفضل مما كان عليه في عهد سلفه. إذا ما أخذنا في الحسبان تدني سعر العملة السورية مقابل العملات الصعبة وما ترتب على ذلك من غلاء في المعيشة: فقد وصل راتبي إلى **ألفي ليرة سورية**. ثم قفز بعد ذلك إلى (**أربعة آلاف ومائتين وخمسين ليرة سورية**)؛ وقد حصلت هذه الزيادة بفضل تغيير في سعر الأوقية الرسمي مقابل الليرة السورية. وبلغ مجموع التعويضات الإضافية التي استفدتُ منها: (**ست عشرة ألفا وستمائة وستا وعشرين ليرة سورية**).

التعامل مع السفير محمد فاضل ولد الداه

التعامل مع السفير محمد فاضل في غاية الصعوبة، لا يصدق أحدا ولا يثق فيه. ولا أحد أكبر عنده من أن يشكك في مصداقيته حتى أقرب الناس إليه: حين أقول له: قال فلان ينظر إلي بحدة ويقول لي: "**أيه وما هو رأيك أنت؟**". وعندما أعطيه بعض المعلومات بشكك في صحتها، عن طريق حركات يقوم بها بفمه، ما يعرف عندنا (**بالتّشْكام**)، ولكنه في نفس الوقت كان نزيها معي حين يتأكد من صحتها يعترف لي بذلك.

مرة تنكر لتوقيعه لمذكرة عمل تؤجل عطلة كاتبته الخاصة: فهذه الكاتبة كانت تجمع عطلتها لسنتين لقضائها مع أخواتها بفرنسا. وعندما تقدمت بطلب عطلتها قال لها: "لديك شهر واحد". فقالت له: "سعادة السفير أنا عندي مذكرة عمل موقعة من طرفكم بتأجيل عطلتي العام الماضي". وحين أتته بها قال لها: "هذا ليس توقيعي". خرجت من عنده تبكي وناولتني المذكرة وقالت لي: "بالله عليك يا أبا جمال هذا توقيع السفير أم لا". قلتُ لها: نعم هذا توقيعه بشحمه ولحمه.

وكان يشير دائما إلى إن أعداءه كثر. يقول لي: "أنا ليست ورائي قبيلة مثل غيري من الأطر، فقبيلتي أسر قليلة. وصلت إلى ما وصلت إليه من تدرج في المناصب بجهودي الذاتية". مرة تراه يجامل حتى ينتزع منك العطف، ومرات يكون أقسى من الحجاج. وثمة حقائق ينبغي الاعتراف بها ألا وهي أن السفير *محمد فاضل ولد الداه* رجل ذكي جدا، ومثقف ثقافة حية، وهو دبلوماسي مجنك، ولديه قدرة فائقة على إقناع محاوريه، ويستخدم لذلك المنطق الحي والحكم البليغة والشعر الفصيح، وأحيانا الآية والحديث، ولا يمكن وصفه بالبخل.

غادر السفير *محمد فاضل* وتولى *الشيخ* قيادة السفارة، بوصفه قائما بالأعمال. وهذه المرة قائما بالأعمال بالفعل، وكنتُ مقتنعا إلى حد بعيد أنه سيمنحني راتبي بالعملة الصعبة، لما كان يتظاهر به من اهتمام بمصلحتي، ولثقة صديقه *محمدو الناجي* به، ولكنه في النهاية لم يفعل شيئا بل أصبح يردد - في هذا الشأن - بعض الكلام الذي بلغني أن السفير *محمد فاضل* كان يردده. واقتصرت مساعدته لي على منحي راتبا إضافيا في نهاية العام 1990.

وللمحافظة على ماء الوجه في هذا الصدد سمح لي بالذهاب بالسيارة إلى منزلي بعد نهاية الدوام كل يوم، بشرط أن لا استخدمها في أية مهمة خاصة دون علمه، وللتأكد من استخدامي لها من عدمه كان يراقبني: مرة أصيب ابني بوعكة صحية وذهبتُ به إلى الطبيب في سيارة أجرة. وأثناء ذلك اتصل بي على هاتف جارتي وعندما لم يجدني بعث إليّ ابنه وعاملا معه. وحين وصلا كانت السيارة متوقفة أمام المنزل. وفي نفس الوقت وصلتُ أنا وزوجتي.

وحين التقيتُ به في الغد قال لي: "أنا كنت بحاجة إليك يوم أمس واتصلت بجارتك وقالت إنها دقت عليكم الباب ولم يرد عليها أحد فقلقت عليكم وبعثت *عبد الله والده* للاطمئنان عليكم". قلتُ له: ذهبنا *بجمال* إلى الطبيب. رد عليّ: "السيارة كانت موجودة أمام المنزل عند وصول *عبد الله والده*". قلتُ له: ذهبنا في سيارة أجرة. فقال لي: "ولماذا لم تذهب في السيارة؟ أنا لا أقصد بالتنسيق معي في موضوع استخدامها التضييق عليك، إلى هذه الدرجة، وإذا كان هذا الأمر يزعجك فبإمكانك استخدامها من الآن فصاعدا متى شئت". ولكني لم أستخدمها خارج أوقات الدوام طيلة فترته قائما بالأعمال.

كان *الشيخ* يفضلني أن أكون قريبا منه في كل الأوقات. يتحدث معي ويناقشني في أمور معظمها لا يعنيني، وأحيانا يسألني عن أخرى من خصوصياتي المحذورة. وإذا لم أكن قريبا منه يتصل بي. لا ليقول لي شيئا جديدا إنما ليعيد عليّ ما سبق وأن قال لي أكثر من مرة؛ ولهذا كنتُ أرفض أن أعطيه رقم هاتف جارتي خوفا من أن يزعجها بكثرة الاتصال. ولكنه استطاع الحصول عليه عن طريق الصدفة: مرة اتصل به ***محمد محمود ولد ودادي*** من **أديس أبابا** على هاتف منزله وطلب منه أن يبلغني أنه يريد أن يكلمني عن طريق نفس الهاتف في وقت لاحق مساء. وقد هيأ *الشيخ* الظروف ليكون موجودا عند الاتصال. وأثناء المكالمة طلب مني ***محمد محمود*** أن أذكره برقم هاتف جارتي فقد نسيه. وبالمناسبة أخذه *الشيخ* وقال وهو يضحك: "لقد حصلنا على هذا الرقم الذي كان ممنوعا علينا بوسائلنا الخاصة".

استأنف القائم بالأعمال عملية التهريب، ولأنه يعرف موقفي المعارض لها كان من الضروري أن يحضرني نفسيا لها. فقال لي: "الأستاذ سيداحمد فيما إذا أردنا استئناف موضوع "الكتب" ما هي أفضل طريقة نتبعها لذلك؟". قلتُ له: أنا لا أنصح بالعودة إلى ذلك العمل وعليه ليس في ذهني تصور أفضل أو أسوء لطرق التعامل معه. رد عليّ: "لماذا هذا الموقف المتشدد؟". قلتُ له: أولا هو أمر فاضح. فضحنا جميعا وفضح موريتانيا من ورائنا. وثانيا أنا هو أكثر الناس عرضة لما يترتب عليه من مخاطر وأقلهم استفادة منه.

ضحك ضحكة عميقة وقال لي: "**أَنْتَ لاهِ تْرَخَّسْنِ مَا فِتْ أعْـرَفْتْ كَمْ لاه نَعْطِيكْ. أنا لاه نعطيك مائة دولار** في كل مرة. إذا كنا سنستجلب البضاعة من لبنان. أما إذا كنا سنشتريها من دمشق سوف أعطيك خمسين **دولارا**". (شر ما من صداقته بدو).

وفي الرحلة الأولى اكتشف مرة أخرى كم كان صديقه يغالطه ويستغل طيبته. وكان ذلك صدفة طريفة: وصلنا إلى **الحلبي** وسلمناه البضاعة وكان القائم بالأعمال ينتظر ثمنها على أساس السعر: (**سبعة دولارات**) وحين أعطاه **الحلبي** المبلغ وجده مضاعفا ففوجئ بذلك ولكنه سكت. وفي طريق العودة سألني عن مدى دقة **الحلبي** في الحسابات؟ فقلتُ له: حسب معرفتي به كان دقيقا.

قال لي: "إلا في هذه المرة فقد أخطأ خطأ فادحا. لقد أعطاني ثمن البضاعة مضاعفا". فقلت له: كم أعطاكم؟ قال لي: "أعطاني كذا". فقلتُ له: هذا هو ثمن البضاعة بالضبط. ولك أخي القارئ أن تتصور مدى المرارة التي قد تحصل في النفس في مثل هذه الحالات.

وقبل مغادرة السفير بأيام قليلة وصل المستشار الثاني ***محفوظ ولد محمد أحمد***، وعلى الرغم من حداثة وصوله فقد شجعه القائم بالأعمال على الدخول في العملية. فاشترى سيارة خاصة به وجهزها لهذه الغاية. وطلب من القائم بالأعمال أن أكون أنا هو الذي يذهب معه في هذه العملية. وعندما عرض عليّ الأخير ذلك رفضتُهُ. فكنتُ أفضل في هذه الأمور أن أكون مع رئيس البعثة دائما.

ولم يكن المستشار فوطا محظوظا. ذهب معه سائق سوري يعمل في السفارة يدعى **صلاح الدين السوس** (أبو ماهر) وعند الحدود الأردنية أوقفهم الجمارك وطلبوا تفتيش السيارة. ومثل هذه الحالات. من الأمور المتوقعة في كل وقت. ولذلك علمنا المستشار طرق التعامل معها. فاتصل **بالحلبي** في الأردن وأخبره بالأمر وبدوره اتصل **الحلبي** بالقائم بالأعمال. وكان الوقت متأخرا ليلا. فاتصل بي الأخير وطلب مني الحضور إلى منزله. وحين وصلتُ أخبرني بما حصل.

شكلنا غرفة عمليات. وواصل القائم بالأعمال الضغط على مدير التشريفات بوزارة الخارجية الأردنية في عمّان عبر الهاتف طالبا منه بشكل صارم إصدار التعليمات اللازمة للجمارك بالسماح للمستشار بمواصلة رحلته دون اعتراض؛ وقد تواصلت هذه الاتصالات حتى قبل طلوع الفجر. وفي الأخير سمحت السلطات الأردنية للمستشار بالعودة من حيث أتى دون تفتيش. وفي الساعة السادسة صباحا عاد مرهقا إلى دمشق. وتم تكليف السائق ببيع هذه الحمولة لمهربين في دمشق. ولكن بسعر أدنى. السائق هو الذي حدده.

وقد اتضح فيما بعد أن هذا السائق غير نزيه؛ وقال البعض إنه ربما يكون هو الذي أخبر الجمارك بطبيعة حمولة السيارة عندما هددوه بالحبس. وقال لي القائم بالأعمال إنه هو الذي استلف للمستشار الجديد ثمن السيارة وكذلك ثمن البضاعة وأنه أعفاه من تعويض الأخير.

وتأكيدا لعدم نزاهة هذا السائق ـ الضابط في المخابرات كما يعتقد **الشيخ** ـ فقد أخذ مرة إحدى سيارات السفارة ـ دون إذن ـ وذهب بها إلى مدينة **شتوره بلبنان** وحمّل في مقاعدها الخلفية عددا كبيرا من الساعات اليدوية. وفي طريقه إلى دمشق أوقفته دورية من الجمارك (**الضابطية**) كما بسمونها. وفي التحقيق معه ادعى أن كمية الساعات تعود للمستشار الثاني بالسفارة السيد ***عبد الودود ولد الصادق***؛ هذه التفاصيل أطلعني عليها السفير المختار ***ولد محمد موسى*** بعد ذلك حين **عدتُ** من موريتانيا حيث كنتُ في العطلة.

الفصل الخامس

وفي 1991/01/28 وصل سعادة السفير ***أحمدو ولد سيدي***. وكنا في استقباله في المطار. أنا والقائم بالأعمال وصحبناه إلى منزل السفير. حيث أقام له الأخير وليمة فاخرة. وقد اشترى له قبل وصوله **إلحافا وشرشفا** ومخدة للنوم. لعدم وجود أي من هذه الضروريات في منزل السفير كما سبقت الإشارة إليه. وبعد أن غادرنا السفير حين انتهى العشاء بتفاصيله. قال لي القائم بالأعمال: "الأستاذ سيداحمد. ما رأيك في: هل نطلع السفير على موضوع "**الكتب**" أم نتركه حتى يكتشفه وحده؛ وأي السائقين ترى أن نقدمه له على أنه هو سائق السفير الخاص؟".

يبدو أن المستشار (القائم بالأعمال المنتهي ولايته) كان يفكر في أن يخفي موضوع التهريب عن السفير. ليستمر في القيام به وحده ما تيسر من الوقت بالاستعانة بي. وقبل وصول السفير بفترة قصيرة اشترى سيارة خاصة تمهيدا لذلك؛ قلتُ له: السفير هو رئيس البعثة وسوف يختار من بين السائقين من يريده. أما الموضوع الآخر أنا أرى أنه من الأفضل أن نطلعه عليه. لأنه ربما كان على علم به أصلا وفي هذه الحالة نتجنب الحرج.

سائق السفير الخاص كان ***عصام عوض*** وسائق أسرته ***محمدو دمبا صال***. وأنا كنتُ مكلفا بالعلاقات العامة: ***دمبا صال*** غادر مع السفير و***عصام*** أجبره القائم بالأعمال على الاستقالة وحل محله ***أبو ماهر***. وكان المستشار يخطط ليكون ***أبو ماهر*** هو سائق السفير الخاص. لأنه يفضل ـ كما ذكرنا ـ أن أكون أنا هو من يذهب معه في أموره الخاصة. وبقائي بعيدا عن ارتباطات السفير يتيح هذه الفرصة أكثر: عمل المستشار بنصيحتي وأطلع السفير على موضوع "**الكتب**" واتفقا على أن يستمر المستشار في نشاطه حتى يقدم السفير أوراق اعتماده وبعد ذلك لكل حدث حديث.

وبصراحته معه وصدقه كان المستشار يتطلع إلى شراكة مع السفير الجديد أحسن مما كانت عليه في عهد سلفه، ولكن الصراحة في موضوع التهريب والنزاهة مع أهله قد لا تكون هي الطريقة الأمثل. ففي هذا الأمر، إما غابن أو مغبون، هذا ما أكدته الشراكات السابقة.

عاد موضوع التهريب ليحتل الصدارة من جديد. وكما يقال، تجري الرياح بما لا تشتهي السفن. ففي يوم 1991/02/27 كانت ليلة سوداء بالنسبة لنا. فقد غادرنا ـ المستشار الأول وأنا ـ دمشق في حدود الساعة الخامسة مساء ووصلنا إلى محل التاجر اللبناني **أيلي ريشا** في مدينة **شتروه** وحمّلنا السيارة المرسيدس رقم: **1/151** (**المستشار الشيخ هو الذي أعاد لها هذا الرقم**) وهي سيارة السفير الرسمية بكمية **ستمائة وست وخمسين گروصا**، من مختلف أنواع السجائر.

وفي العودة وبعد أن تجاوزنا مركز الحدود الرسمي كانت دورية من مكافحة التهريب في انتظارنا على أحر من الجمر، تركتنا نتجاوز حاجزا للتفتيش قريب من الحدود الرسمية بين لبنان وسوريا وهو حاجز عام. والسيارات الدبلوماسية يكفيها أن تخفف السرعة عند المرور به ومن ثم تواصل سيرها وهكذا فعلنا نحن؛ ولو أن رجال الجمارك قالوا فيما بعد إننا رفضنا التوقف عنده، فقامت دورية يقودها ضابط من الجيش السوري ـ سنعرف فيما بعد أنه الرائد جهاد ـ بمطاردتنا على متن سيارة مرسيدس **200** مجهزة بكل وسائل المطاردة وأوقفتنا ـ بعد أن حشرتنا في زاوية ضيقة ـ بمنطقة تسمى وادي النون، (هذا الوادي النحس).

ترجل أحد أفراد الدورية وهو يحمل بندقية رشاش مصوب نحونا وتقدم إلى باب السائق. وكانت أبواب السيارة ونوافذها مغلقة كلها ودق عليّ النافذة بفوهة الرشاش ففتحت شباك الباب قليلا. فقال لي: "افتح افتح لنا الصندوق. لمن تتبع هذه السيارة ومن فيها؟ **ومن وين جايين وأفين رايحين**"؟.

جملة من الأسئلة جاءت دفعة واحدة وبنبرة حادة ـ قلت له: السيارة تابعة للسفارة الموريتانية وفيها المستشار الأول وتجاهلتُ بقية الأسئلة. فطلب مني هوية المستشار الدبلوماسية. وهو ينظر إليها كان زملاؤه يدورون حُول السيارة ويصوبون شماعات في أيديهم على وجه المستشار بشكل استفزازي واضح: ويحدقون النظر فيه وهو جالس على الطرف اليميني من الكرسي الخلفي فوق كميات كثيرة من السجائر. وعلى أرضيات السيارة من حُوله وخلف ظهره داخل المساند. وهم لا يرون وجهه بوضوح بسبب الضباب المتراكم على نوافذ أبواب السيارة من شدة البرد.

عاد الجمركي وقال لي: "افتح لنا صندوق السيارة". قلتُ له: السيارة دبلوماسية وفيها المستشار الأول ولا يجوز تفتيشها بأي حال من الأحوال. فقال لي: "الحصانة الدبلوماسية للسفير وحده". وبعد ذلك تقدم إلينا قائد الدورية وهو يسير بخط ثابتة وقال لنا: "نحن نريد معرفة ماذا تحمل السيارة بغض النظر عن صفة الشخص الذي فيها. إما أن تفتحوها لنا هنا أو نذهب جميعا إلى وزارة الخارجية ويتم فتحها هناك".

شعرنا بالخطر، خاصة أنا لأني لست دبلوماسيا والقانون السوري صارم في مثل هذه الحالات. وبدون تردد وافق المستشار على أن نذهب إلى دمشق. قلتُ له: يا أستاذ هذه مجرد خدعة الغاية منها أن نذهب معهم وبعد ذلك يجبروننا على التوجه إلى وجهة أخرى. الأفضل أن نعود إلى مركز الحدود الرسمي وهناك يصبح موقفنا من الناحية القانونية أقوى؛ كنا نتحدث بداخل السيارة ولا أحد منهم يسمعنا. ولكنهم يعرفون أننا نتشاور وينتظرون قرارنا النهائي.

ومع تشددهم هذا وإصرارهم على تفتيشنا كانوا مرنين معنا إلى حد بعيد. لولا هذه المرونة ـ النابعة من طيبة الشعب السوري المكتسبة من عراقته وعمق حضارته ـ لكانوا كسروا علينا النوافذ وفتحوا السيارة بالقوة أو يعطلون عجلاتها ولن تعوزهم حجة فيما بعد: قلنا لهم لنعد إلى مركز الحدود وتركنا لديهم الانطباع بأننا سنقبل بالتفتيش هناك.

وعلى هذا الاقتراح وافق قائد الدورية؛ عدنا إلى مركز الحدود ورافقتنا عدة سيارات محمّلة بالعديد من عناصر الأمن؛ وفي مراكز الحدود بين سوريا ولبنان وبين الأردن وسوريا في ذلك الوقت توجد ممرات خاصة بالسيارات الدبلوماسية، وبفضل التسهيلات التي كانت ممنوحة لهم كان الدبلوماسيون يدخلون ويخرجون من حدود هذه البلدان الثلاثة دون الحاجة للقيام بإجراءات الدخول والخروج المعتادة. وكنتُ أخطط للعبور من هذا الممر إلى خارج الأراضي السورية، وبهذا نصبح أحرارا في العودة إلى لبنان عند الضرورة. ولكن أفراد الدورية كانوا يقظين فقد سبقونا إلى ذلك الممر وأغلقوه بإحدى سياراتهم.

وعند وصولنا إلى المركز أحاطوا بنا من كل الجهات، وعندما توقفنا قلت للمستشار: لا تفتح الباب حتى يبتعدوا عنا خوفا من أن يدخلوا السيارة بالقوة عند نزولنا منها، مما يتيح لهم فرصة التعرف على جزء من حمولتها، وهذا أمر مهم جدا لأنهم طالما يجهلون ما بداخلها يظل موقفهم القانوني ضعيفا؛ ولكن المستشار لم يعمل بنصيحتي، وحين فتح الباب هجم عليه قائد الدورية وسحبه من داخل السيارة بالقوة ودخل آخر في السيارة وفتح كيسا من النايلون مملوء بالسجائر وقال لقائده: "سيدي هذا دخان". وخرج فقمتُ أنا بسرعة بإخفاء ما ظهر من السجائر وقفلتُ السيارة وسلمتُ مفتاحها للمستشار، الذي تصرف بعنف نحو قائد الدورية فمسك بتلابيبه وشده إليه حتى تكسرت أزرار قميصه العسكري وصفعه بيده على الوجه.

معركة جرت في لحظات ولكنها كانت حامية الوطيس، وقد أدت إلى ارباك أفراد الدورية بشكل واضح، فقد فاجأتهم ـ كما قالوا لنا فيما بعد ـ شجاعتنا وصلابة موقفنا، وبعد هذه المعركة دخلنا جميعا إلى مكتب رئيس الجمارك في مركز الحدود، ولم يخف هذا الأخير استغرابه لتصرف جماعته (أمامنا على الأقل). فسلم علينا بشكل طيب وطلب لنا الشاي، وأثناء هذه الجلسة شرح له قائد الدورية ما جرى، وخصوصا المعركة التي جرت بينه وبين المستشار وسأله عنما يجب فعله.

فقال له: "ليتك سألت هذا السؤال قبل الذي جرى. ووجه كلامه إلينا نحن قائلا: "نحن إخوة، وبين الإخوة لا توجد فضائح، قد يخطأ بعضنا في حق البعض ولكن تظل أمور الإخوة قابلة للحل بالطرق الودية، وكان من الممكن حل الموضوع ضمن هذا الإطار، نحن نعتذر لكم عما حصل".

هدأ هذا الحديث الودي خواطر الجميع وبعد ذلك أمر رئيس المركز قائد الدورية بأن يتصل بالمدير العام لجمارك دمشق لأخذ التعليمات اللازمة؛ وبعد قليل عاد إلينا قائد الدورية وقال إن المدير أمر بأن يسمح لنا بالذهاب إلى دمشق وتبقى السيارة في مركز الحدود، وفي الصباح يأتي وفد من وزارة الخارجية وآخر من السفارة ويتم الكشف على حمولتها بحضور الجميع، وعلى عجل أيضا رفض المستشار: "لن نذهب بدون سيارتنا، هذا التصرف مرفوض ولا يليق، نحن دبلوماسيون وفي بلد شقيق ولا يجوز أن نعامل بهذا الشكل".

طلبتُ منه أن يخرج معي للتشاور، وقلتُ له: نحن موقفنا ضعيف، أنا لستُ دبلوماسيا وحين يكتشفون ذلك يستطيعون توقيفي، ومن مصلحتنا الموافقة على اقتراحهم، فطلبوا لنا سيارة أجرة وذهبنا إلى دمشق؛ وحين كنا في مكتب رئيس مركز الحدود قال لي الضابط قائد الدورية: "أنت رجل شجاع ولن أذكر اسمك في تقريري أبدا، احتراما لما رأيته فيك من شجاعة". وفعلا وفى ذلك الضابط بوعده.

وصلنا دمشق وأطلعنا السفير على تفاصيل الحادث، فكانت ردة فعله عادية وكأن شيئا لم يحدث، يبدو أنه لا يعرف الخوف وكذلك من تعرفت عليه من أسرته، فاتصل بمدير التشريفات بوزارة الخارجية السورية واتفقا على أن توجه السفارة في الغد مذكرة شديدة اللهجة إلى وزارة الخارجية وتطلب منها التدخل لدى إدارة الجمارك من أجل فك حجز السيارة وحمولتها وتسليمها للسفارة.

وفي وقت لاحق طلبت وزارة الخارجية السورية من السفارة التقدم بطلب لإعفاء كمية السجائر الموجودة بالسيارة، من أجل إيجاد حل يحفظ لها ماء الوجه. وعلى هذا الطلب وافقت الوزارة وحولته برسالة إلى إدارة الجمارك، مضمونها: "إن السفارة قد سهت عن تقديم طلب الإعفاء في الوقت المناسب وعليه فإن الوزارة تطلب من إدارة الجمارك تسليم السيارة وحمولتها للسفارة فورا".

أصرت إدارة الجمارك على معرفة محتوى حمولة السيارة، بحجة الخوف من أن تكون سلاحا أو مخدرات. وطلبت من الخارجية حضور مندوب عنها وآخر عن السفارة. وإذا لم تكن الحمولة تشمل أيا من المادتين سنسلمها هي والسيارة للسفارة؛ ولم يكن هذا الحل سوى خدعة من الجمارك حتى تتمكن من ضبط الحمولة من الناحية القانونية؛ أبلغت الخارجية السفارة برغبة الجمارك هذه وأكدت لها أن الموضوع منته عند هذا الحد وطلبت منها تعيين شخص لتمثيلها في هذه القضية.

كلفتني السفارة ـ بموجب مذكرة رسمية ـ بتمثيلها لحضور الكشف على حمولة السيارة. فذهبتُ صحبة مندوب من وزارة الخارجية السورية إلى مقر (الضابطية) المكلفة بمكافحة التهريب بالعاصمة دمشق. وقد تفاجأتُ بوجود السيارة هناك خلافا لما كنا نتصوره. ولتبرير ذلك قالوا لنا إنهم سحبوها من الحدود عندما طال الوقت لأن وجودها هناك فيه خطر عليها. لكن الحقيقة غير ذلك فقد فتحوها وذهبوا بها إلى دمشق. وأخذوا ما يزيد على عشرين گروصا من حمولتها.

وبعد جلسة خاطفة في مكتب رئيس الضابطية توجهنا إلى حيث تقف السيارة وعند وصولنا إليها طلب مني رئيس الضابطية أن أفتحها بنفسي فرفضتُ ذلك وسلمتُ المفتاح لمندوب الخارجية وبدوره سلمه لقائد (الضابطية) فقام الأخير بفتحها وبدأ رجال الجمارك يخرجون السجائر من كل مكان فيها، حتى محل العجلة الاحتياطية، ثم قاموا بإحصائها علبة علبة، ولفافة لفافة. وقد بلغ عددها: **(126.520 مائة وست وعشرين ألفا وخمسمائة وعشرين لفافة)** من مختلف أنواع السجائر.

وقام الرائد *يوسف*، رئيس الضابطية بتحرير المحضر النهائي وفي خلاصته سجل بوضوح بأن هذا هو التهريب (الموصوف في القانون)، ولم يكن أي من الحاضرين ـ عند تفريغ السيارة ـ يعرف أني أنا هو من كان يقودها أثناء تلك الحادثة، لكن سوء الحظ تدخل في آخر لحظة، فقد وصل الرائد *جهاد* عند توقيعنا على المحضر، ومعه أربعة من فرقته. فالتفت إلي وهو يبتسم وقال لي: "كيف حالك يا بطل". قلتُ له: من تعني؟ قال لي: "أنت، ألست من كان يقود السيارة في تلك الليلة السوداء؟". ابتسمتُ ابتسامة تترك الانطباع للآخرين بأن المقصود ليس أنا. فالتفت إلى زملائه وقال لهم: "أليس هذا هو؟". قالوا له جميعا: "نعم سيدي، هو بِرَاتُو". ثم أضاف: "واللّه لو دخلت بين ألف شخص لميزتك عنهم. أنت بالعلامة كنت هو بطل تلك المعركة بدون منازع. وتتذكر أني وعدتك بأن لا أذكر اسمك في تقريري أبدا".

تدخل الرائد *يوسف*، وقال له: "هذا غير مهم هو الآن هنا بصفته مندوبا عن السفارة". وفي خلوة مع الأخير قال لي: "أنت رجل شجاع والسلطة التي اختارتك هنا أحسنت الاختيار، ونحن بشرفنا أن تعمل معنا. وإذا وافقت على هذا العرض تستطيع أن تقيم في سوريا وتفعل فيها ما يحلو لك". قلتُ له: شكرا جزيلا سيادة الرائد. أنا هنا أعمل في بعثة بلادي ـ وللأسف ـ لا أصلح لما تشيرون إليه؛ ولم يكن الرائد *يوسف* وحده في هذا التصور فكان غيره من المواطنين السوريين العاديين يعتبرونني ضابط مخابرات.

أخذتُ صورة من المحضر وذهبتُ، على أساس أن أعود في الغد لمعرفة ما سيوجه به المدير العام للجمارك، وبخصوص السيارة علينا أن نكتب من جديد نطلب تسليمها للسفارة. وكنا نتصور أن الموضوع قد انتهى ـ بناء على تأكيدات وزارة الخارجية ـ وأننا فزنا في هذه المعركة، سلموا لنا السيارة بعد ذلك بأيام أما السجائر فبقيت بيد الجمارك إلى يومنا هذا.

وعلى الرغم مما تنطوي عليه هذه القضية من إحراج ظلت السفارة تطالب بهذه البضاعة لفترة طويلة، خصوصا أنها أصبحت شرعية؛ وبعد فترة من الانتظار وجه السفير مذكرة شديدة اللهجة إلى وزارة الخارجية طالبا منها الوفاء بما وعدت به، وفي هذا الشأن طلب مقابلة كل من: *عبد الحليم خدام*، نائب رئيس الجمهورية، و*محمود الزعبي*، رئيس مجلس الوزراء، ***ناصر قدور*** وزير الدولة للشؤون الخارجية، و***وهيب فاضل***، وزير شؤون رئاسة الجمهورية و***محمد خالد المهايني***، وزير المالية وسلم لكل منهم نسخة من هذه المذكرة، وطلب منهم جميعا التدخل بغية استرجاع هذه البضاعة، ولكن المدير العام للجمارك كان أقوى من الجميع.

والطريف في هذا الأمر أن المستشار الأول ـ الشريك في الربح والخسارة ـ راوده شك في أن البضاعة قد تم استرجاعها وأن السفير أخفى عنه ذلك، وقد حاول أن يحصل مني على بعض المعلومات حول هذا الموضوع، لأنه كان مقتنعا بأن هذا الأمر لا يمكن أن يحصل دون علمي، فكان يسألني عنه أكثر من مرة في اليوم، يقول لي: "الأستاذ سيد احمد ما الجديد في موضوعنا؟" أنا لا أستبعد أن يكون صاحبك (يقصد السفير) قد استرجع البضاعة وأخفاها عنا. وأنت إذا كنت تحترم ضميرك يجب أن لا تساعده على فعل مثل هذه الخيانة".

وكأن حاسته السادسة أنبأته ببعض المستور؛ فأثناء احتجاز السيارة الرسمية أعار سيارته للسفير باعتبارها أفضل السيارات مظهرا، وقد استخدمها الأخير في بعض العمليات الخفية، فكان يذهب إلى لبنان ويشتري كميات قليلة من السجائر ويعود بها إلى دمشق ويضعها في غرفة النوم، حتى يحصل العدد المحدد، **(ستمائة گروصا)** ثم يذهب بها إلى مدينة أربد بالأردن. (لم لا، فالتهريب سنته الغش)؛ وكانت هذه العملية متعبة إلى حد ما ولكنها أفضل من لا شيء.

وفجأة سافر السفير إلى موريتانيا على أثر وفاة أحد أفراد أسرته، وبقي المستشار الأول قائما بالأعمال بالنيابة، ولم تكن هذه الفترة فترة جيدة بالنسبة لنا. فكان الخوف لا يزال يتملكنا بسبب الحادثة المذكورة من جهة، ومن جهة أخرى فالفصل فصل الشتاء والجليد يغطي معظم الطرقات مما يحد من حرية الحركة في الأوقات الباردة التي هي الأوقات المثالية لمهماتنا. وقد أجبرنا هذا الوضع على شراء البضاعة على دفعات من دمشق وضواحيها، من مهربين وسطاء، تعرفنا عليهم عن طريق القنصل الشرفي، فكان الأخير يشتري منهم بدوره البضاعة دون علمنا، خلال زياراته المكوكية لدمشق بحجة أنه يحمل الحقيبة الدبلوماسية في كل مرة، قبل أن يتوقف عن هذا النشاط بسبب تعرضه لعملية تفتيش من قبل الجمارك بالأردن.

هؤلاء المهربون لديهم محلات لبيع الفواكه والخضار تقع على الطريق العام الرابط بين سوريا والأردن، وتحت هذا العنوان يبيعون كميات من السجائر المهربة يزودهم بها ضباط في الجيش السوري (على حد قولهم)، وحين يتصل بهم بالهاتف ليجهزوا له كمية منها يرمز لها **"بالبندورة"** أي **(الطماطم)**، لأن لونها يشبه لون بعض السجائر، ومن هنا جاءت هذه التسمية، وكيلو **البندورة** هذه يساوي: (1) كرتونة أي خمسين گروصا **من سجائر المارلبورو**، والربح في هذه العملية أقل بالنصف تقريبا، ولكن المثل يقول: **(عصفور في اليد أفضل من عشرة على الشجرة)**.

ولكل تسمية قصة: فتسميتنا للسجائر **"بالورق"**، سببها هو أن ابن القنصل الشرفي الصغير **محمد** كان حين يرى السجائر متناثرة أثناء التفريغ يسأل والده قائلا: "ما هذا يا بابا؟". يقول له: "هذا ورق يا حبيبي". خوفا من أن يتحدث الولد ـ ببراءة ـ عن اسم البضاعة الصريح أمام أطفال الحي، خاصة أن القنصل الشرفي كانت لديه في ذلك الوقت شركة لتجارة الورق. (سنتعرض لهذه التسميات بمزيد من الشرح في الصفحات القادمة بإذن الله).

ولم يطل غياب السفير. عاد ومعه سائق يدعى *مبارة ولد سيدي بوبكر* (اسمه الحقيقي *عبد الله ولد المختار*) (سيأتي شرح ذلك لاحقا). وقد أتى السفير بقرار تقاعد المستشار الأول. وفي انتظار وصول تذاكر عودته إلى أرض الوطن كان أمله كبيرا في أن يظل عضوا من أعضاء البعثة. يشاركهم أفراحهم وأرباحهم حتى يغادر. ولكن السفير أسقطه من حساباته نهائيا.

ومع مرور الوقت بدأ السفير يثق بي بعض الشيء وقد شجعني ذلك على أن أطلب منه منحي راتبي بالدولار. وقد وافق على ذلك مشكورا. ويصل راتبي - فيما إذا تم احتسابه بالدور - إلى: **(ثلاثمائة وتسعة وسبعين دولارا)** لكن السفير أمر المحاسب بأن يعطيني منه: **(ثلاثمائة)** فقط في مرحلة أولى. ويبدو أنه كان يخطط للتكرم عليّ ببقيته في المستقبل على شكل زيادة. هذا ما اتضح لاحقا حين قال لي إنه قرر أن يمنحني زيادة في الراتب: لكن المحاسب *سيدي ولد الطيب* أعطاه لي من البداية كاملا دون علم السفير. ولكنه بالمقابل أوقف مبلغ (**المائة دولار**) الذي كنت أستفيد منه في كل رحلة من مهامنا الخاصة. مما كان يوفر لي دخلا مهما يبلغ: (**خمسمائة دولار**) في الشهر.

وبفضل هذا القرار - التاريخي بالنسبة لي - تحسنت ظروفي المادية بشكل ملحوظ ولذلك ذهبتُ إلى موريتانيا في العطلة. وقبل سفري دربتُ السائق الجديد على العمل: كيف يحمّل **السجائر** في صندوق السيارة وفي أروقته. بحيث لا تقل الحمولة عن العدد المذكور؛ كما دربتُهُ على كيف يتعامل مع أساليب رجال الأمن في الحدود وعلى الرد على أسئلتهم. وكيف يتبادل معهم النظرات؟ فتلك أمور مهمة جدا.

فرجال الأمن والجمارك لديهم أساليب متعددة في التعامل مع المسافرين. القادمين والمغادرين في الحدود. والدبلوماسيون - بحكم الحصانة الدبلوماسية التي يتمتعون بها - لهم وضع خاص: ومن الصعب معرفة ماذا يحملون في سياراتهم وفي حقائبهم. وليس من السهل تفتيشهم. وحتى الأسئلة الاستفزازية ينبغي أن لا توجه إليهم.

وفي ذلك الوقت كانت السلطات المختصة في المنطقة تعرف أن بعضهم يهرب السجائر وغيرها. ولكي يجدوا مبررا لتفتيشهم يتبعون أساليب مختلفة. ويركزون على السائقين بوصفهم الحلقة الأضعف. وهم إما سوريون أو أردنيون وبالتالي يكون الضغط عليهم أسهل. أو من مواطني بلد البعثة وليسوا دبلوماسيين وهذا يجعلهم في موقف الخوف من التعرض للمساءلة القانونية: وعلى من يتعامل مع رجال الأمن أن يكون على مستوى عال من اليقظة والفطنة واللباقة وخفة الحركة. ليترك لديهم الانطباع بأنه ليس لديه ما يخفيه وأن بعثته فوق الشبهات. وهذا أمر في غاية الصعوبة (التظاهر بالبراءة الكاذبة ليس بالأمر السهل).

وفيما يلي نماذج من تلك الأساليب: عند وصول السيارة إلى مركز الحدود يقوم عناصر الأمن بدورة حولها. ويركزون أنظارهم بداخلها بشكل لا يخلو من الاستفزاز. ويوجهون جملة من الأسئلة للسائق: "أي سفارة هذه؟ من معك في السيارة؟ من **وين جايين**. **وفين رايحين**؟ ماذا في الصندوق؟ أشياء شخصية؟ تحمل أجهزة كهرباء؟ معك أسلحة؟". أسئلة تبدو في ظاهرها عادية ولكنها في الحقيقة مرجة.

هذا النوع من الأسئلة ينبغي أن يكون الرد عليه بتجاهله أحيانا وبالابتسامة المفتعلة أحيانا أخرى: فإذا كان السؤال، مثلا أي سفارة؟ أجب وبدون تردد السفارة كذا. وإذا كان من معك في السيارة؟ أجب السفير أو القائم بالأعمال أو المستشار فلان. وإذا كان السؤال ماذا في صندوق السيارة؟ أجب "**الله إسامحك**"؛ وكان السوريون يوجهون هذه الأسئلة بجدة تامة. أما الأردنيون فكانوا يوجهونها بجدة ألطف. وقد اكتسبت خبرة جيدة من خلال التعامل معهم. ولو أتيح لي العمل في الجمارك بعد هذه التجربة لكان من السهل عليّ اكتشاف المهربين.

وفي عودتي من العطلة كان السفير قد اشترى سيارة مرسيدس خاصة به، وكثف من عملياته بمساعدة السيدة حرمه. وعند وصولي أصبح العمل على النحو التالي: حرم السفير والسائق *ميارة* على خط دمشق لبنان. وأنا والسفير على خط دمشق الأردن وهكذا. ثلاث مرات في الأسبوع.

ويبدو أن السائق الجديد قد تأقلم بسرعة مع موضوع التهريب. فأثناء غيابي استطاع أن يقوم بزيادة في الحمولة بالتعاون مع أصحاب المحل الذي نشتري منه في لبنان، ويبيع تلك الزيادة لأبناء القنصل الشرفي. وعلى ما أظن أنه من بين الأسباب التي دفعته إلى هذا النوع من التحايل ـ الذي جرنا معه إليه فيما بعد ـ هو أن السفير لم يكن يعطيه راتبا محددا، ولا حتى مصروفا للضروريات. خصوصا أنه كان يدخن. فإذا احتاج لملابس أو لأدوية يأمرني السفير بأن اشتريها له. يقول إنه غير رشيد وإذا أعطي النقود يصرفها في أشياء تافهة.

واستطاع زميلي أن يخفي عني هذا الأمر لفترة لا أعرف كم طالت. وبما أني هو الذي يذهب مع السفير إلى **الحلبي**، اتفق ـ بعد عودتي ـ مع أبناءه على أن يلصق لهم ورقة في مكان معلوم بمؤخرة السيارة مسجل فيها العدد الزائد. وعند وصولنا إليهم يقوم أخوهم الأصغر مُحمد ـ أثناء تفريغ الحمولة ـ بحركات في ظاهرها عفوية تنتهي بالدخول تحت السيارة وسحب الورقة ومن ثم يخفون العدد المسجل فيها. ويتحاسبون فيه معه في وقت لاحق. وفي حال لم يلصق لهم ورقة فهذا يعني أن لا زيادة في العدد. وهكذا.

يقول المثل الحساني: "**أم الستّارك مَا أتّمْ ألاّ أتْزَفّرتْ**" فقد اكتشفتُ العملية: ففي إحدى المرات كان من المقرر أن يذهب هو مع السفير وفي آخر لحظة تغير البرنامج. ولم يجد الوقت لتنفيذ خطته. وعند وصولنا قام الولد بالبحث عن الورقة ولم يجدها وعليه اعتبر إخوته أن لا زيادة في العدد وبالتالي جرى تنزيل البضاعة وعدها بشكل طبيعي. وفي نهاية العملية تبين أن هناك عشرة **گروصات** زيادة. وقد سر السفير بهذا الأمر لأن المنتظر دائما هو النقص وليس الزيادة.

وعند عودتنا إلى دمشق أخبرتُ زميلي بهذه الزيادة. وكان صريحا معي فأخبرني بالحقيقة ونصحني بأن أقوم بدوري بنفس الشيء وبهذا أحرجني كثيرا. فإذا أنا رفضت هذا يعني واحدا من ثلاثة: إما أن أخبر به السفير وهذا يضعف موقفي أمام زميلي. أو أسكتُ وأكون متسترا بدون مقابل. أو أوافق وهذا يعني خيانة السفير الذي يثق بي؛ أنا في نظر الجميع شخص مثالي ومن العيب عليّ أن أوجد في مثل هذه المواقف.

فكرتُ في الموضوع. وتوصلتُ إلى ما يلي: العملية هي عملية تهريب. أي خيانة في حد ذاتها. وأنا مجبر على العمل فيها. وأكثر من ذلك. أني معرض لما فيها من أخطار. والسفير أوقف المبلغ الذي كنتُ أستفيد منه فيها. وزميلي لن يتراجع عن ما أقدم عليه. فلا شك أنه سوف يواصله إما علنا أو سرا. ولهذه الأسباب وافقتُ على اقتراحه. بشرط: أن نكون شركاء في كل شيء وأن نأخذ موافقة القنصل الشرفي على هذه العملية.

بدأنا بزيادة: (**10 گروصات**). وظلت هذه الزيادة ترتفع إلى أن وصلت إلى (**275 ميئتان وخمس وسبعون گروصا**) في كل رحلة (**بني آدم لا يملأه إلا التراب**). وقد انزعج أبناء القنصل الشرفي من اتفاقنا مع والدهم. فازدادت عمليات النقص. مما دفع السفير لحضور عمليات التفريغ شخصيا. وبفضل اتفاقنا مع القنصل الشرفي كنا نقوم بإخفاء تلك الزيادات بسهولة والسفير جالس أمامنا. وكان القنصل الشرفي أكثر الجماعة تقديرا لجهودنا ويقر بحقنا فيما نقوم به.

وانطلاقا من سنة التهريب المشار إليها كان المحاسب يقوم بعمليات تهريب سرية. وخوفا من أن يعلم السفير بذلك كان يتعامل مع تاجر جديد اكتشفه في العاصمة **عَمّان**. له صلة بجنرال في الجيش الأردني. مقرب من الأسرة المالكة كما يقول هذا الشخص الذي كان يعرف أننا نتعامل مع **الحلبي** وقد بذل مجهودا كبيرا لاكتسابنا. باعتبار أن أكبر كمية تدخل الأردن من هذه البضاعة في ذلك الوقت كانت تدخله عن طريقنا.

ويستقبلنا هذا الشخص في كل مرة عند مدخل مدينة **عَمّان** ويعطينا سعرا أفضل من السعر الذي يعطينا **الحلبي**. ويستضيفنا في كل مرة في أحد المطاعم. وأكثر من ذلك كان يعطي للسائق: (**خمسين دولارا**) إكرامية في كل مرة. أما المستشار الأول حين تيقن أن السفير وضعه جانبا. بلغني أنه استعان بسائق من خارج السفارة وقام بعملية واحدة على الأقل في سيارته الخاصة التي كانت ما تزال تحمل لوحة دبلوماسية. وقد ذهب إلى صاحبنا المكتشف حديثا قبل مغادرته لاحقا؛ وقد علم القنصل الشرفي بهذه العملية. وبعمليات المحاسب كذلك عن طريق منافسه وأبلغ السفير بهذا الأمر. فقام السفير بتهديد المستشار. وذكره بأنه لم يعد عضوا في البعثة وفي حال تعرض لمشكلة ما فلن يجد فيه رأفة. وعند هذا الحد توقف الأخير.

أما المحاسب. فعندما اتضح للسفير أن السيطرة عليه مستحيلة اتفق معه على أن يقوم برحلتين في الأسبوع. يشتركان في نتيجة واحدة منها حسب ما قال لي المحاسب. ولهذا عاد الأخير إلى التعامل مع القنصل الشرفي مع الحفاظ على علاقة قوية بصاحبه المذكور. تلك العلاقة التي حافظنا عليها جميعا. "**أَتَاشْ عِلْبَ**".

وكما سبقت الإشارة إليه كان *الشيخ* ـ بحكم علاقاته الخاصة مع السفير ـ يمارس نوعا من السلطة على عمال السفارة. وفي هذا الإطار جئتُهُ يوما صباحا لأخذه إلى المكاتب. وكنتُ ألبس قميصا قبته حمراء. فقال لي بتشنج: "الأستاذ سيد احمد أنت لا توجد لديك ملابس خالية من اللون الأحمر؟ أنا لا أحب هذا اللون وحين تكون معي لا تلبس ثوبا فيه لون أحمر أبدا".

وفي الصباح أتيتُهُ بالقميص نفسه وربطة عنق بلون أحمر أيضا. فقال لي: "أنا لا أقصد بملاحظتي أمس التدخل في شؤونك الخاصة. كلما في الأمر أني أتشاءم من هذا اللون. ويبدو أنك انزعجت كثيرا ولذلك جئت اليوم ولباسك كله أحمر". قلتُ له: يا أستاذ موضوع الملابس أمر شخصي وأنا لا أستطيع أن ألبس على ذوق الآخرين. غدا سيقول لي السفير لا تلبس اللون الأخضر. ويقول لي المستشار فلان لا تلبس اللون الأبيض وهذا غير معقول.

وللشيخ ـ كغيره ـ ضيوف. فقد زار السيد *سيد احمد ولد الدي* دمشق ومعه أسرته قادمين من بغداد. بعد أن أجبرتهم الحرب على الخروج من العراق. وقد تبناهم *الشيخ* ضيوفا عليه. وكما كان لضيوف قبلهم رغبة في زيارة لبنان فكانت لهم بدورهم أو لبعضهم نفس الرغبة. قال لي *الشيخ* إن السيدة حرم الأستاذ **سيداحمد** طلبت منه أن يوفر لها فرصة لزيارة لبنان لشراء ما تيسر من "**البندوره**" من هناك.

غادر *الشيخ ولد أحمدو* عائدا إلى أرض الوطن بعد إحالته للتقاعد "خطأ" وبمغادرته ترك فراغا ملحوظا في السفارة. فكان أكثر الدبلوماسيين تضحية من أجل لمّ شمل أعضاء البعثة. من دبلوماسيين وغيرهم في منزله دائما حول موائد كريمة. وفي نفس الوقت يلعب أدوارا مهمة في التخفيف من حدة الخلافات بين السفير ومعاونيه كما أشرنا إليه. ولدى *الشيخ ولد أحمدو* شجاعة كبيرة على قول الحقيقة حتى في الأمور التي لا تعنيه. وهو رجل كريم ولكن الكرم آفته المن. وقد منحه اللّه زوجة طيبة.

حل المستشار الثاني *عبد الودود ولد الصادق* محل *الشيخ*. ويبدو أن السفير كان يعرفه حين كانا معا في طرابلس بليبيا. وقد استقبله استقبال الأصدقاء؛ وبعد وصوله بزمن قصير استلف له ثمن سيارة وقرر أن يلحقه بالركب إلى جانب المستشار الأول والمحاسب. وبهذا أصبحنا نقوم بأكثر من رحلة في اليوم.

وأنا وزميلي *ميارة* نتبادل الأدوار على الجميع، ما عدا المستشار الثاني فقد رفضتُ الذهاب معه لعدم ثقتي به؛ وكان نصيب كل منا في الرحلة الواحدة: (**100 مائة دولار**). وفي دوري مع المحاسب يضاعف لي هذا المبلغ. أما نصيب زميلي فكان يسلم في كل مرة للسفير بحجة سفهه المذكور.

وبتاريخ 1992/12/14 أوقف الجمارك السوريون المحاسب في سيارته الخاصة قادما من لبنان وكانت محمّلة بكمية كبيرة من البضاعة، ومعه سائقه الشخصي، وليست لدي معلومات دقيقة حول هذه الحادثة. فقد اطلعتُ عليها عن طريق كاتبة السفير؛ وعلى أثر هذه الحادثة خفف من نشاطاته. بينما واصل السفير عمله مع تغيير بسيط في النكتيك حتى عشية مغادرته سوريا نهائيا.

وكما ذكرتُ فلم أكن راضيا عن هذا العمل، الذي كان مصدر قلق دائم لي؛ فكنتُ أرى في منامي كوابيس رهيبة، وكنتُ مقتنعا بأن سببها هو الخوف من مجهول هذا العمل المشين حسب ما كنتُ أراه. وقد انتهزتُ فرصة مغادرة السفير لأخذ راحة ولو قليلة من تعبه. فافتعلتُ قصة توحي بأن جواز سفري قد ضاع؛ قبل مغادرة السفير بثلاثة أيام كنا في إحدى مهامنا في الأردن في وقت متأخر من الليل. وجرت العادة أن يصطحب السفير معه في كل مرة جميع جوازات سفر أسرته مربوطة بشريط مطاط من النوع الذي يستخدم لربط النقود. نستخدم منها ما نحتاجه في الحدود وفي نهاية المهمة نعيدها إلى مكان معلوم بداخل السيارة. وعند عودتنا يأخذ السفير جميع الجوازات إلى منزله وهكذا في كل مرة.

واستعدادا للسفر باع السفير سيارته وكانت ما تزال عنده، وهي التي قمنا فيها بآخر رحلة. وفي الصباح سلمها لصاحبها. وحين التقيتُ السفير في المكتب في الغد سألتُه عنما إذا كان جوازي بقي مع الجوازات؟ وهذا أمر وارد فقال لي: "الجوازات في البيت وحين أعود إليه سوف أرى إن كان بينها".

وفي المساء اتصل بي وأخبرني بأنه لا يوجد بين الجوازات. قلتُ له إني أخاف أن يكون قد سقط بين مقاعد السيارة؛ فاتصل السفير بالرجل الذي اشتراها وطلب منه أن يمر علينا في السفارة لهذه الغاية. وفي الصباح أتى الرجل وبدلا من أن أجد الجواز وجدتُ علبة من "**البندوره**" عالقة تحت أحد كراسي السيارة. وبصعوبة أخفيتُها عن الرجل.

ضاع إذن جواز سفري في رأي البعض. وقد حرصتُ ـ كلما جرى الحديث بخصوص ضياعه ـ على أن لا أستعمل عبارة صريحة بضياعه، خوفا من الوقوع في الكذب. وفي إطار التعليقات على هذا الموضوع قال لي القائم بالأعمال والمحاسب إنهما على يقين من أن السفير هو الذي أخفاه قصدا، لحرمانهما من الاستفادة من خدماتي. وحين ودعني السفير عند مغادرته قال لي: "الجماعة يعتقدون أني أنا هو الذي طلب منك أن تدعي أن جواز سفرك قد ضاع. والحمد للّه أنك تعرف أن هذا غير صحيح". وبعد هذا بأقل من شهر استطاع القائم بالأعمال أن يستصدر لي جوازا جديدا من موريتانيا بوساطة زميل له يدعى *ببه ولد محمد مُبارك*.

وبعد ضبط الجمارك لسيارة المستشار المذكور، أوقف الجمارك الأردنيون المستشار الثاني *ع. الودود* في الحدود ومعه نفس السائق، وقالوا له إن لديهم معلومات تفيد بأن سيارته تحمل بضاعة مهربة وأنهم يريدون التأكد من صحة ذلك. فرفض طبقا للتوصيات المعتمدة وطلب العودة إلى سوريا. وبعد تدخل القنصل الشرفي لدى وزارة الخارجية الأردنية تم السماح له بالعودة من حيث أتى في وقت متأخر من الليل، بعد أن أجبره الجمارك على توقيع وثيقة، مفادها أنه يعود بناء على رغبته لأنه يحمل كميات من السجائر المهربة.

هذه القصة أطلعني عليها القائم بالأعمال والسائق المذكور، وبعد ذلك أكدها لي السفير *المختار ولد محمد موسى*؛ وقيل آنذاك إن هذا السائق هو الذي أخبر الجمارك بطبيعة حمولة السيارة بإيعاز من أحد الدبلوماسيين لبث الرعب في قلوب زملائه من هذه العملية لينفرد بها وحده. واللّه أعلم.

غادر السفير ولكن أسرته بقيت في المنزل لفترة من الزمن، على الرغم من مخالفة هذا الأمر للأعراف الدبلوماسية؛ وقال لي القائم بالأعمال إن حرم السفير كانت تنوي الاحتفاظ بالسيارة الرسمية حتى مغادراتها، وأنها كانت تستخدم الهاتف الرسمي في المنزل بشكل مفرط.

ولم تتوقف عند هذا الحد فقال لي إنها طلبت منه: إما أن يخصص لها سيارة وسائقا وهي تتولى مهام "الكتب" بنفسها، أو يعطيها نتيجة عملية من عمليات التهريب كل أسبوع. وأنها قالت له: "سوف أطلب من *عبد الودود* أن يعطيني سيارته فإذا قبل ذلك سوف أعفيك من الإحراج وإلا فالأمر متعين عليك".

ولكن الأخير أعتذر لها. فعادت إلى القائم بالأعمال فأعطاها السيارة الرسمية على أن تقوم برحلة واحدة. فاتصلت بي هاتفيا وقالت لي: "*محفوظ* أعطاني سيارة **وأنْدّورَكْ تَمْشِ أمْعَايَ شْوْرْ أبْلِيْدَتْنَ ذِيكْ**". قلتُ لها: أنا لا أستطيع السفر بدون جواز. قالت لي: "**مَاهِ مشكلة نَمْشِ بجواز** *عثمان*". فاعتذرتُ لها أيضا: فذهب معها السائق *عبد اللّه* وأنجزت مهمتها على أكمل وجه.

وقد بلغني أنها قالت فيما بعد إني أنا و*عبد الودود* لم نرد لها بعضا من جميل زوجها؛ وحقيقة الأمر أن الذي منعني من الذهاب معها هو الخوف من أن ينتهز الجمارك هذه الفرصة لفضحنا من جديد. خصوصا أنها لم تعد تتمتع بالحصانة الدبلوماسية في المنطقة.

التعامل مع السفير أحمدو بن سيدي

لم أستطع معرفة الشخصية الحقيقية للسفير ***أحمدو ولد سيدي***؛ ولكن الملاحظ أنه لا يعرف الخوف، قليل الكلام، عكس سلفه دائما، لا يهتم كثيرا بتفاصيل الأمور الإدارية، كنتُ المسؤول عن جل مشترياته التي كان يطلب لكل منها فاتورة، وعندما أقدم له الفواتير مع بيان تفصيلي بطبيعة المشتريات يسدد لي المبالغ ويمزق البيان التفصيلي أمامي، في إشارة إلى أنه لا يشك فيما أقول.

وعلى الرغم من ثقته بي ـ التي اعتبرها البعض مطلقة ـ كادت حادثة عابرة أن تثير شكه في بعض الشيء: كنا في إحدى المرات نصفي حسابا بيننا وقد سلمتُ له بموجبه مبلغ: **ستمائة دولار** كانت له بذمتي، وبعد ذلك بفترة سألني عن بعض التفاصيل بخصوص ذلك الحساب، ثم عاد وسألني مرة أخرى، فقلتُ له: لو أنكم ـ سعادة السفير ـ كنتم تحتفظون ببيان المشتريات لكان من السهل عليكم مراجعة كل الحسابات متى كان ذلك ضروريا.

وبعد فترة استدعاني في مكتبه وطلب مني أن أدخل خلف المكتب من على يساره وأشار بيده وهو يبتسم إلى درج المكتب فإذا بالمبلغ في داخل مكان يصعب مشاهدته منه، فقال لي: "يوم كنا نراجع حساباتنا دخلت علينا الكاتبة عند تسليمك لي المبلغ، فأخذته بيدي اليسرى وأسقطته هنا على غير العادة، ومنذ ذلك الوقت وأنا أبحث عنه في الدروج التي على يميني أو في بعض الملفات على سطح المكتب، وكنت أسألك في كل مرة من باب استنفار الذاكرة، ولكن في علمك أني شككت في كل شيء إلا أنت فلم أشك فيك أبدا". وقال لي المحاسب ***سيدي ولد الطيب*** إنه عندما يقول له أحدهم قال سيد احمد أو فعل سيد احمد يقول له: "**ذاكْ أوفَ**".

وعندما يسافر يترك عندي مبالغ كبيرة، منها مصروفات منزله اليومية أحيانا: وكان يحتفظ بأغراضه المهمة في مكتبه، يقول لي: "أنا لا أستطيع ترك أي شيء مهم في المنزل خوفا من الأطفال أحدهم.... لديه ملكوت فتح الخزائن وأينما حل يكتشف عصابة".

وفي إحدى المرات اختطف (أحدهم) هذا السيارة الرسمية وذهب بها إلى مدينة اللاذقية التي تبعد أزيد من (**ثلاثمائة كيلو متر**) عن دمشق في الشمال السوري، وأمضى بها ثلاثة أيام في منتزه على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، وكان معه مجموعة من أصدقائه من بينهم أبناء ضباط كبار في الجيش السوري، وقد استطاع السفير أحمدو أن يستصدر لي بطاقة دبلوماسية من الخارجية اللبنانية لا أستحقها.

وللسفير أحمد ضيوفه أيضا، فقد زاره محفوظ ***ولد لرابط***، السفير الموريتاني في الدوحة بقطر آنذاك، وبعد أيام من الإقامة في منزله سألني السفير محفوظ عن أين يمكنه أن يستحم؟ (**أكرمكم الله**) فأخذته إلى منزلي وقضى معنا وقتا مرحا حسب ما عبر عنه حين قال: "أين كان هذا كله؟ أنا هلكت من....". وعند مغادرته أهداني مبلغ: (**مائة وخمسين دولار**).

كما كان من زواره السيدة ***آمنة بنت مولاي الزين***، حرم السفير ***محمد فاضل ولد الداه*** دمشق قادمة من القاهرة، وقضت معهم حوالي أسبوع، ومناسبة زيارتها اتصل بي السفير ***محمد فاضل*** قبل وصولها بأيام وقال لي: ***آمنة*** ستزور دمشق ومعها ***ابتسام*** (ابنته) وقد تنزل ضيفة على أسرة السفير، (**الفُوك الفُوك هي ضيفة السفير**) أما في الواقع فهي ضيفتكم أنتم".

الفصل السادس

وفي العام 1993 عين الدكتور ***المختار ولد محمد موسى*** سفيرا لموريتانيا في سوريا. وبعد فترة قصيرة على تعيينه وصلت أسرته إلى دمشق وكنا في استقبالها في المطار: القائم بالأعمال وزوجته وأنا. وقد بدت حرم السفير متكبرة "شايف حالها" كما يقول السوريون. وعند دخولها إلى المنزل والتجول في أروقته قالت: "هذا منزل أم مقبرة. هذا خربان لا يليق سكنا للسفراء". وقد قالت لنا بصريح العبارة: "أنا هي الكل في الكل" وهذ معناه أنها هي السفير. ولذلك تسابقنا جميعا إلى كسب ودها. ويبدو أن دوري في هذا السباق قد أزعجها. قيل لي إنها قالت: "سائق ويجب أن يبقى في حدوده. تقديم الذبائح لأسرة السفير ليس من شأن السائقين".

وقد تصادف وصولها مع استعدادي للسفر إلى موريتانيا في العطلة. وكان القائم بالأعمال قد وافق على هذا الأمر من قبل. وعليه قطعت تذاكر سفري وحجزت أنا وأسرتي. وفجأة قال لي القائم بالأعمال إن السفير الجديد اتصل به وأمر بأن لا أذهب قبل وصوله. وقد تطلب هذا الأمر تدخل الأمين العام لوزارة الخارجية. سافرت إلى موريتانيا وفي نواكشوط التقيته. وفي جلسة خاطفة ـ للتعارف ـ في وزارة الخارجية أمرني بأن أعود فور انتهاء عطلتي.

هذه العطلة التي كرستُ جلها لمتابعة موضوع الاكتتاب رسميا في الوظيفة العمومية. فتوجهتُ إلى صديقي ـ الوفي ـ **سيدي محمد ولد بيه** الملقب **ديدي**، المدير العام للميزانية والحسابات. الذي سبق وأن التقيتُهُ في دمشق قبل هذا بفترة. حين كان ضمن وفد رفيع المستوى يشارك في مؤتمر اقتصادي دولي منعقد في دمشق آنذاك. وأثناء ذلك اللقاء أبديتُ له رغبتي في تحقيق هذا الهدف. وطلبتُ منه المساعدة فيه. فقال لي: "لا أستطيع أن أفتيك في هذا الموضوع في الوقت الحالي. فحين تصل إلى نواكشوط نلتقي وسنرى ما يمكن فعله بإذن الله".

زرته إذن فور وصولي إلى أرض الوطن. وبعد تبادل عبارات الترحيب والود الطيبة شرحتُ له عن قرب رغبتي في أن أكتتب في الوظيفة العمومية لتحقيق حلم ولوج عالم الدبلوماسية. الذي طالما راودني كثيرا. فقال لي: "سيداحمد هذا أمر صعب جدا ولكنه ليس مستحيلا. ساعدني بأن تأتيني بطلب بهذا الشأن من وزارة الخارجية. وحتى ولو جاء اسمك ضمن مائة شخص فسوف أوافق عليه". فاتصلت بالسفير ***محمد محمود ولد ودادي*** في ***أديس أبابا*** وأخبرته بما وعدني به صديق ***سيدي محمد ولد بيه***. فاتصل بالسيد ***خطري ولد جدو***. الأمين العام لوزارة الخارجية وطلب منه بذل ما بوسعه من أجل توجيه طلب بهذا الشأن للمدير العام للميزانية والحسابات.

وفي ذلك الوقت كانت هناك تعليمات صارمة من رئاسة الجمهورية بعدم إصدار أي اعتماد مالي. وفي محاولة للالتفاف على هذه التعليمات وجه الأمين العام لوزارة الخارجية رسالة إلى نظيرته بالوظيفة العمومية يطلب منها الموافقة على هذه العملية مؤكدا لها أنها لا تشكل عبئا ماليا جديدا على ميزانية الدولة. باعتبار المعني موظفا بالسفارة منذ العام 1982 والمطلوب هو تصحيح وضع إداري قائم.

فأخبرت ***سيدي محمد ولد بيه*** بهذه الخطوة. فقال لي إنه سيتصل بوزير الوظيفة العمومية السيد ***المختار ولد حمي*** بغية الرد إيجابيا على رسالة الخارجية. ولكن أمينة وزارته العامة الأمينة السيدة ***خدي بنت شيخنا*** كانت الأسرع بالرد سلبيا. بحجة أن هذا الاكتتاب لا يمكن أن يتم إلا على أساس اعتماد مالي **fiche Budgétaire**.

حدث هذا في الوقت الذي كنتُ فيه بتجكجة. لقضاء جزء من عطلتي بين الأهالي والأحبة. وعند عودتي إلى نواكشوط وجدتُ رد الوظيفة العمومية هذا داخل سجل في مكتب ـ ضيق ـ للاستقبال بوزارة الخارجية؛ فاتصلت مرة أخرى بالسفير/ ***محمد محمود ولد ودادي*** وأطلعته على هذا المستجد.

فاتصل من جديد بالسيد ***سيدي محمد ولد محمد فال "قريني"***. وزير الصناعة والمعادن في ذللك الوقت وطلب منه ـ بإصرار ـ التدخل للحصول على موافقة وزارة الخارجية. وعلى أثر هذا الاتصال أمرني بأن أذهب إليه؛ وعندما راجعتُ الوزير في مكتبه قال لي: "سيداحمد صديقك (يقصد مدير الميزانية) لن يفي بوعده لك، وبالتالي أي عمل نقوم به في هذا الشأن سيكون عملا لا فائدة منه.

كان الوزير سيدي ***محمد*** يتحدث من موقع من يريد أن يخدمني بالفعل ولكنه كان متشائما جدا؛ قلتُ له: معالي الوزير أنا واثق من قول صديقي هذا. وعلى كل حال لا أستطيع أن أوجه إليه اللوم إلا إذا أتيتُهُ بما طلب مني. فاتصل الوزير بالسيد ***خطري ولد جدو***، الأمين العام لوزارة الخارجية وطلب منه إصدار مشروع اعتماد مالي لي، فقال له: "معالي الوزير أنتم تعلمون أن هناك تعليمات بهذا الشأن صارمة، وحتى ولو تجاوزناها وأصدرنا له مشروع اعتما مالي فمدير الميزانية لن يوافق عليه.

فقال له: أرجوكم أن تصدروا له مشروع اعتماد مالي، لأنه واثق من أن صديقه سيوافق عليه". فأمرني الوزير بأن أتجه إلى الأمين العام لوزارة الخارجية؛ دخلتُ على الأخير في مكتبه قبل نهاية الدوام الرسمي بوقت قصير، فنظر إليّ نظرة أب حنون وقال لي: " **يَخَيْ ذ بَعْدْ ألّ لاهِ أنْعَدْ لُولكْ مُحَرّمْ**". يبدو أني للأسف أحرجت الجميع ولذلك أعتذر لهم كلهم وأشكرهم.

وفي1993/08/21 صدر قرار اكتتابي بصفتي محرر إدارة مساعد في وزارة الشؤون الخارجية والتعاون، وبهذا تحقق الحلم ـ المستحيل في رأي البعض ـ بفضل جهود جبارة لأناس خيرين. (سنعود للحديث عنهم بإذن اللّه).

وصل السفير الجديد إلى دمشق قبل عودتي إليها وكان أول قرار يتخذه هو تخفيض راتبي من: (**خمسمائة وخمسة وثلاثين دولارا**) إلى أقل من: (**مائة دولار**)، وفور صدور هذا القرار ـ الذي سنترك للقارئ الكريم تقييم مبرره ـ اتصلت بي كاتبة السفير هاتفيا وأبلغتني به، فأجريت جملة من الاتصالات بشخصيات مؤثرة وطلبت منها التدخل لإقناعه بالعدول عن هذا القرار، ومن بين هذه الشخصيات: السيد ***محمد محمود ولد ودادي***، السفير مندوب جامعة الدول العربية في **أديس أبابا**، الذي اتصل ***بخطري ولد*** جدو، الأمين العام لوزارة الشؤون الخارجية والتعاون، كما اتصلت **بالأخ** عبد ***اللّه ولد سيداتي***، مدير الديون الخارجية بوزارة المالية.

وكنتُ موجودا عندما اتصل به ***سيدي محمد ولد*** بيه بهذا الخصوص وقال له: "سعادة السفير سيد احمد ولد مُبارك هذا صديقي منذ الطفولة ومن فعل له خيرا فعله لي ومن فعل له شرا فعله لي أيضا. ونحن على وشك تحويله إليكم دبلوماسيا وفي انتظار ذلك إذا لم يكن بوسعكم زيادته لا تنقصوه على الأقل".

ويبدو أنه حاول التهرب من الموضوع بحجج لم تكن مقنعة للسيد المدير، فرد عليه: "سعادة السفير أنا مدير ميزانية الدولة وأعرف جيدا ما هو ممكن ماليا وما هو غير ممكن". ولا أعرف بماذا رد السفير ولكن المدير كان يتكلم بنبرة الجد. وكانت طلباته في ذلك الوقت أوامر؛ وبعد انتهاء المكالمة قال لي: "عد إلى عملك واخبرني بما سيؤول إليه الأمر وأنا سوف أتصرف بما يناسب ذلك، حتى تستكمل إجراءات تعيينك دبلوماسيا".

وكان موضوع تخفيض الراتب و زيادته قد أصبح أمرا ثانويا بالنسبة لي مقارنة مع موضوع التعيين. ولذلك انتابني تخوف من أن تحل اهتمامات أخرى محل موضوعي بعد مغادرتي، وقد أعربتُ للسيد المدير عن هذا التخوف، فقال لي: "اطمئن الجميع لديهم مصالح هنا على هذا المكتب ولن يتحقق منها شيء قبل أن يوافقوا على موضوعك". وقد تحوّل هذا الكلام إلى واقع ملموس بعد ذلك بأشهر قليلة.

أما الأمين العام للخارجية فقد أرسل معي رسالة للسفير حثه فيها على إعادة راتبي إلى وضعه السابق. وصباح وصولي إلى دمشق زارني أحد عمال منزل السفير فأرسلتُ له معه الرسالة ومجموعة من الصحف الرسمية والمستقلة بالإضافة إلى هدية أتيتُهُ بها من نواكشوط، وقلتُ للعامل أن يسلم لي عليه وإني سوف أزوره في الغد، وعندما أردت فعل ذلك اتصلت به لمعرفة الوقت الذي يناسبه فردت عليّ زوجته: "يقول لك بعد غد في المكتب". وأعاد إليّ الهدية.

وفي الغد دخلتُ عليه في مكتبه، قال لي: "أنا بلغني أنك أصبحت موظفا رسميا في الدولة هل أتيت بما يثبت ذلك؟". قلتُ له: لقد تم اكتتابي في الوظيفة العمومية وما زلتُ أنتظر التعيين، وقد وعدني الأمين العام بأنه سيتم قريبا. قال لي: "أنا اتخذت قرارا بخصوص راتبك، أنت أكثر الناس معرفة بظروف السفارة. فالسفارة ليست لديها موارد ذاتية، ومخصصاتها المالية لا تسمح بمنح مثل هذه الرواتب؛ وهي في وضع يرثى له وسمعتها سيئة للغاية بسبب موضوع لبنان الذي ولى إلى غير رجعة.

ويضيف: منزل السفير أقرب إلى مغارة منه إلى منزل سفير يمثل رئيس الجمهورية ونحن رفضنا السكن فيه، والآن بصدد وضع خطة لترميمه وترميم مبنى السفارة وسمعتها أيضا؛ لقد اتصل بي *خطري ولد جدو وديدي ولد بيه وعبد الله ولد سيداتي* وأوصوني كلهم عليك، ولا أدري في الحقيقة مدى شرعية استمرار عملك في السفارة، لأنك أصبحت موظفا رسميا في الدولة، والقانون لا يسمح بشغل وظيفتين في آن واحد، ولكن هؤلاء أصدقاء لي ولابد من أخذ طلباتهم بعين الاعتبار، لننتظر عودة المحاسب وسنرى ما يمكن فعله". تذكرتُ محاضرات أحد أسلافه، قلت له: شكرا سعادة السفير، أنا أتطلع معكم إلى مستقبل أفضل.

وبعد هذا بأيام قليلة وافق على عودة راتبي إلى وضعه السابق. وبالمناسبة قال لي: "أنا لم أكن أنوي تطبيق ذلك القرار ضدك. إنما كنت أضربك به لكي أستطيع التعامل معك. أنت سمعتك هنا أحسن من سمعة السفراء. أم هالة (زوجته) فاجأها كونك أتيتها بذبيحة وقد اتصلت بي في نواكشوط وأبلغتني بذلك وبصعوبة أقنعتها بأن تقبلها، ولهذا كان لا بد من ضربك حتى أتمكن من السيطرة عليك". **(مازحا في ظاهر الأمر)**.

وعلى الرغم من ظروف السفارة التي برر بها قراره فقد وظف شابا يدعى ***عبد الرحيم ولد البح*** في السفارة ومنحه راتبا أكبر من راتب ملحق دبلوماسي: **(ألف دولار)**. كما وظف آخر يدعى ***حميدة بن أحمد طالب*** براتب مماثل. أصدر قرارا باكتتابه غداة وصوله إلى دمشق وأعطاه راتبه لسنة كاملة دفعة واحدة وفي نفس اليوم أصدر قرارا آخرا بفصله من العمل وعاد المعني في اليوم التالي إلى القاهرة حيث يدرس. وفي هذا الإطار كان أبناؤه أيضا يدرسون في المدرسة الأمريكية بدمشق برسوم دراسية عالية، تصل إلى: **عشرة آلاف دولار** في السنة. ولم تكن مناهج هذه المدرسة ـ كما هو معلوم ـ من أفضل المناهج في تدريس الأخلاق العامة خاصة الإسلامية منها.

كان طاقم السفارة الدبلوماسي في هذه الفترة يتألف من: المستشار الأول ***محفوظ ولد محمد أحمد***، المستشار الثاني ***عبد الودود ولد الصادق***. السكرتيرُ الأولى ***أمينة بنت سيكه*** والسكرتير الأول ***محمد محمود ولد أمحيميد*** (المحاسب). الأخير هو الذي حل محل ***سيدي ولد الطيب*** المحوّل حديثا إلى الجزائر، ولكنه ما يزال في دمشق آنذاك. وفي هذه الفترة الانتقالية كانت السكرتيرُ الأولى تقوم بعمليات تهريب خفية بمساعدة السائق ***عبد الله*** ***(مياره سابقا)***.

دعونا نشرح أسباب تغير اسم هذا السائق: *عبد الله* هو مواطن موريتاني من مواليد دولة النيجر، ولم يكن يحمل وثائق ثبوت وطنية، وعندما أراد السفير *أحمدو* الذهاب به إلى سوريا أصدر له جواز سفر باسم شخص يدعى *مياره ولد سيدي بويكر*. وبعد ذلك بفترة أصدر له جواز سفر آخر باسمه الصحيح؛ وحسب ما قال لي *عبد الله* إن السفير أحمدو كان ينوي الذهاب به إلى اليمن ليدخلها بجواز السفر الجديد، ولكنه رفض الذهاب معه فسحب منه الجواز القديم وأعطاه الجديد، ولذلك اختفى *مياره*. وكاد هذا الأمر أن يسبب لنا إحراجا مع السلطات الأمنية في المنطقة، ولكن البعثات الدبلوماسية تستطيع التستر على الكثير من الأمور.

نعود إلى عمليات التهريب الخفية التي كانت تقوم بها السكرتيرة الأولى حيث قامت بثلاث رحلات على الأقل ثم توقفت، لأن المستشار الثاني أخبر السفير بعملياتها فاستدعاها الأخير هي والسائق وهددهما واحتجز جواز سفر السائق. وقال لي بالمناسبة إنه فكر في أن يحتجز جواز سفري أنا أيضا ولكنه عدل عن ذلك لثقته بي حسب قوله.

وفي سياق التودد لحرم السفير المذكور كان المستشار الثاني يزودها باستمرار بما استطاع الاطلاع عليه من خصوصيات الجميع، فقال لي السفير إنه قال لها: "سيد احمد ليس سائقا فهو يتصرف كما لو أنه سفير، والسفارة تحتاج إلى سائق عادي وليس إلى سفير إضافي، ومحفوظ عبارة عن العدم نقوده *أمينه بنت سيكه*، وهو رجل نافه (ما يربط السروال الأبيض)"[1].

ويبدو أن هذا المستشار معروف لدي العديد من زملائه بهذه (الخصال) فقد اعترف لي شخصيا أنه كان يحتال على الهدايا التي كانت تقدمها الحكومة الليبية لكبار الشخصيات الموريتانية التي كانت تزورها أثناء عمله في السفارة هناك، وهي ـ والكلام للمستشار ـ هدايا قيمة تتمثل في: السجاد الجيد وأجهزة الراديو والساعات الأنيقة والعطور وأشياء أخرى ذات قيمة مالية كبيرة؛ وقال إن محاسب السفارة آنذاك كان يتقاسم معه هذه الغنائم؛ كما اعترف لي أيضا بأنه احتال على مبلغ (**ألف دولار**) للعقيد *أحمد ولد منيه*، وزير الخارجية، أعطاه له مرة حين كان في زيارة لطرابلس بليبيا، ليشتري له به قطعة من الذهب لأحد أفراد أسرته، وأنه ظل يماطله في أمره حتى غادر وبقي له المبلغ.

وصل إذن السفير الجديد وهو عازم على توقيف عملية التهريب نهائيا، وكان يتحدث عنها بمرارة تامة، يقول إن الذين كانوا يمارسونها فضحوا السفارة وفضحوا موريتانيا من ورائها وهذا صحيح، لكن القول شيء والفعل شيء آخر: فقد استطاع المحاسب إقناعه بسهولة بهذا الأمر، قال له: "سعادة السفير هذه العملية توفر دخلا كبيرا يبلغ أحيانا: (**ثلاثين ألف دولار**) في الشهر، وأنتم تستطيعون ممارستها دون التعرض لأية مشكلة، بالاعتماد على سيد احمد، فهو شخص محترم ويعرف المنطقة معرفة جيدة ولديه علاقات ممتازة مع السلطات في الحدود، وفوق ذلك فهو حافظ للأسرار، وأنا أيضا أستطيع أن أتولاها نيابة عنكم وإذا ـ لا سمح الله ـ حصلت مشكلة أحملها وحدي".

---

[1]- السروال الأبيض كان من امتيازات بني حسان.

وكان السفير قد اشترى عند وصوله سيارتين فخمتين، إحداهما خاصة به والثانية خاصة بحرمه، وقد وضع الأخيرة تحت تصرف المحاسب لهذه العملية، ويبدو أنه اتصل بالسلطات المعنية في نواكشوط وأقنعها بالتراجع عن قرار تحويل الأخير. بعض هذه المعلومات أطلعني عليه المحاسب نفسه والبعض الآخر اطلعتُ عليه من شريكي، (أكثر شراكات التهريب مصداقية). ولكي يحضرني نفسيا لتجاوز ما سبق الحديث عنه بخصوص هذا الموضوع، قال لي السفير: "الأستاذ سيد احمد هناك بعض الأمور التي أريد أن أسمع رأيك فيها بوصفك أكثر الجماعة تجربة وأفضلها مصداقية. سمعة السفارة في أدنى مستوى لها وإمكانياتها متواضعة. أريد أن أعرف منك ما إذا كان هناك مصدر إضافي نستطيع من خلاله تغطية بعض النفقات، كموضوع لبنان - مثلا - الذي كنتم تمارسونه؟ وهل أنت موافق على القيام به؟".

قلتُ له: سعادة السفير أنا أصلا من معارضي هذا العمل، ولكننا وصلنا فيه مرحلة اللاّعودة. وحتى ولو توقفنا عنه سنظل متهمين به. وفي هذه الحالة نستطيع أن نمارسه ولكن بشرط أن يكون ذلك بشكل منظم ومحدود: فمرة واحدة في الأسبوع واختصار العملية على رئيس البعثة يمكن أن يعطي نتيجة جيدة وقابلة للاستمرار، أما إذا تجاوز الأمر ذلك فقد يخرج عن السيطرة وتكون له مضاعفات خطيرة. فقال لي: "وهو كذلك حين نقرر ممارسته سنتبع ما ستقترحه أنت بإذن اللّه".

ولكن هذا الحديث - للأسف - كان يدور في الوقت الضائع. ففي الوقت الذي كنا نتحدث فيه كان المحاسب والسائق *عبد اللّه* في طريقهما إلى شتوره بلبنان في أول مهمة لتهريب السجائر في عهد السفير الجديد؛ وفي 11/17/ 1993 باشر سعادته هذه العملية شخصيا وبنفس الطريقة التي كان يتبعها بعض أسلافه؛ لكنه كان أكثر منهم استعدادا للتضحية المادية من أجل التغطية عليها. فقد فوضني تفويضا تاما في هذا المجال ووفر لي الإمكانيات له، فكنا نوزع الهدايا بسخاء في كل المناسبات على جميع الجهات التي لها صلة بالموضوع.

التعامل مع السفير المختار ولد محمد موسى

السفير *المختار ولد محمد موسى* يشبه السفير *محمد محمود ولد ودادي* من حيث حب المظهر الجميل والحرص على أبهة البعثة وأناقة موظفيها. ويشبه السفير *محمد فاضل ولد الداه* من حيث عدم الوضوح وخلط الأمور، ويشبه السفير *أحمدو ولد سيدي* من حيث قلة التدقيق في الأمور الإدارية. ويتميز عنهم جميعا بأنه يدار من المنزل؛ وقبل أن أودعه في أحداث مذكرات سائق، لنلتقي به في مذكرات دبلوماسي لا بد من الاعتراف بالجميل لزوجته (*أم هاله*) على حرصها الدائم تقديم الضيافة الكريمة لي في كل وقت أزور فيه منزل السفير، فشكرا جزيلا لها.

لنعد قليلا إلى البعثة الدبلوماسية لنتناول جانبا من جوانب عملها الأخلاقي والأدبي: البعثة الدبلوماسية تمثل بلدا بكل مكوناته: شعبه، عاداته وتقاليده وكذلك مستوى الكرم لدى أفراد مجتمعه. وهذه الأمور وإن كان البعض يراها ثانوية تبقى مسألة هامة وأساسية في العديد من جوانب العمل الدبلوماسي: فالمستوى الحضاري والثقافي لأي شعب مهما كان من السهل قراءته من خلال سلوكيات وتصرفات من يمثلونه في البعثة. والثابت في أذهان البعض أن شخص السفير يُختار على هذا الأساس. وهذا الأمر ينسحب ولو بدرجة أقل على بقية العاملين في البعثة. فاختيار الملابس وتناسقها، وآداب الحديث، وطرق تناول الطعام، كلها أمور يستطيع المهتم بالشؤون الدبلوماسية أن يحكُم من خلالها على شعب بأكمله.

وبحكم علاقات الدول يوجد الكثير من مواطني بلد البعثة في دائرة اعتمادها، إما طلابا أو جالية من مختلف فئات المجتمع أو ضيوفا من كبار المسؤولين يزورون ذلك البلد أو يمرون بأراضيه من حين لآخر؛ والبعثة بحكم مهمتها تبدو هي المسؤولة عن تغطية جميع النواقص التي قد تلاحظ على هذا الطرف أو ذاك. وهذا يتطلب مجهودا كبيرا، من أهمه تقديم الهدايا التي أصبحت ضمن الأعراف الدولية الشائعة اليوم، وهو ما يعرف بالإكراميات. (بقشيش عند البعض).

الإكراميات ودورها في العمل الدبلوماسي

لكل عمل ما مكملاته وهي عبارة عن تفاصيل بسيطة في ظواهرها العامة عميقة بمدلولاتها المحددة. هذه المكملات هي التي تُظهر العمل في أحسن صورة ممكنة له. وتكمن جودة العمل الدبلوماسي عموما في المظاهر: الأناقة في المظهر، الابتسامة اللطيفة، الكلام الحلو، المجاملات، والتهاني بالمناسبات وتقديم الهدايا الرمزية فيها. وتحت هذه العناوين تختبئ مسألة مهمة جدا ألا وهي (الإكراميات).

ولا يوجد مبلغ متفق عليه كحد أقصى أو أدنى لها. فهذا الأمر يخضع لمستوى مقدميها من جهة ولمكانة بلدانهم من جهة أخرى. فعلى سبيل المثال: إذا أنت أهديت خمسين يورو في باريس فأنت تهدي مبلغا متواضعا عند الفرنسيين. أما إذا أنت أهديتها في موريتانيا فأنت تهدي راتب موظف لشهر كامل تقريبا وهكذا (**على قدر أهل الكرام**)؛ وتكمن قيمة الإكرامية في تقديمها في وقتها المناسب (**كُلُّ شٍ في وقتٌ حَلُو**)؛ وقد أصبحت الإكراميات اليوم عادة تعرفها شعوب العالم كافة وتخصص لها الدول بنودا في ميزانياتها السنوية. وتُمدح من خلالها بلدان وتُذم أخرى. وتحسب لها الموظف العادي ألف حساب. (**ربكْ مَاهْ ربك وِلْ آدم يَنفْعْ**).

حين يقوم مبعوث رفيع المستوى بزيارة لبلد ما. ويستقبل بالحفاوة والتكريم. ويضع البلد المضيف تحت تصرفه طاقما من الموظفين للسهر على راحته وأمنه: سائق يقود به السيارة، وأفراد من الشرطة لفتح الطريق أمامه، وعناصر من الأمن تحرسه، وموظفون من التشريفات يتحركون أمامه وإلى جانبه. لإظهار أهميته واهتمام البلد المضيف به وببلده . كل هذا إذا لم يتوج بهدية بسيطة (**إكرامية**)، لعمري سيكون هناك نقص ما. يقول الشاعر:

ولَمْ أَرَ في عُيوبِ النَّاسِ شَيئا كنَقْصِ القَادِرينَ على التَّمَام.

وجرت العادة على أن تتولى بعثة الموفد الدبلوماسية تقدير حجم الإكرامية وتحديد من يستحقونها. ويقوم أحد أعضائها بالإشراف على توزيعها بالتنسيق مع مقدميها. ولكن للأسف الشديد من بينهم من (**يَوْكَلْ أرْسُولُو**).

وعلى الرغم من تواضع إمكانيات بلادنا المادية بالمقارنة مع بلدان أخرى. فكان رؤساء وفودنا الذين زاروا سوريا والأردن ولبنان في الفترة ما بين 1982 إلى 1995 أفضل من غيرهم بكثير في هذا المجال. باعتراف الموظفين السوريين. ممن لديهم خبرة في هذا الشأن. وأتذكر جيدا أن بعضهم جاء إلينا يطلب من السفارة التدخل لاختياره لمرافقة وفد موريتاني كان منتظرا وصوله إلى دمشق في ذلك الوقت. وقد اعتذرنا لهم لما في هذا الأمر من تدخل في شؤون الغير. وبعد ذلك كانوا ـ في كل مرة يكون فيها التحضير جاريا لعقد لقاء دولي أو عربي في دمشق ـ يأتون إلينا يسألون عما إذا كانت موريتانيا ستشارك فيه. ليقوموا بوساطتهم لدى سلطاتهم للفوز بمهمة مرافقة الوفد الموريتاني. ليحظوا بإكراميات أفضل.

وللتاريخ أقول إن أكرم رؤساء وفودنا الذين تعرفت عليهم في هذا المجال كان العقيد ***محمد الأمين ولد الغيلان***. فحين كان وزيرا للشؤون الخارجية والتعاون زار دمشق في بداية العام 1986 ضمن لجنة سباعية من وزراء الخارجية العرب للتباحث في شأن فلسطيني على ما أذكر. وعند مغادرته أعطى للقائم بالأعمال مبلغ (**ثلاثة آلاف فرنك فرنسي**). ما يعادل: (ثلاثين ألف ليرة سورية). أي راتب أكثر من أستاذ جامعي في سوريا ذلك الوقت على أن يوزعها على فرقة المرافقة. ولكنه مع الأسف لم يعطهم سوى نصف هذا المبلغ.

وفي العام 1987 زار عمّان بالأردن. وكان وقتها ما يزال وزيرا للخارجية وفي هذه المرة ممثلا لرئيس الجمهورية. في قمة عربية مشهورة برافقه وفد يتكون من السادة: ***المختار ولد حي***، مدير إدارة العالم العربي بالوزارة. و***محمد فاضل ولد الداه***. سفير موريتانيا في سوريا ولبنان والأردن. و***محمد الأمين ولد يحيى***. سفير موريتانيا في تونس ومندوبها الدائم لدى جامعة الدول العربية و***بابه ولد محمد عبد الله***. سفير موريتانيا في الرياض.

وأثناء تناول الشاي الأخضر في جناح الوزير حيث كانوا جلوسا وأنا أصنع لهم الشاي. قال الوزير للسفراء: "أنا ذهبت بشكل مفاجئ والرئاسة لم تعطني شيئا من النقود لهذه المهمة وما لدي منها غير كاف لتقديم الإكراميات الواجبة لعناصر المرافقة. فتعالوا ندفعها موزعة بيننا. مع إعفاء ***المختار***. وحين أعود إلى نواكشوط سوف أبعث لكل منكم تحويلا ماليا لتغطية ما دفعه". والتفت إلى السفير ***محمد فاضل*** وسأله عن كم حجم المبلغ اللازم إجماليا؟ وكم ينبغي أن يعطى لكل واحد من أفراد المرافقة؟ فحوّل السفير السؤال ليّ.

فقلتُ لهم إن المرافقة خمس مجموعات: المرافق العسكري للوزير. وهو جنرال من الحرس الملكي. وسائق السيارة الرسمية. وشرطة الدراجات النارية المرافقة للسيارة الرسمية. وعناصر الأمن وأصحاب التشريفات. فالجنرال ينبغي أن يعطى (ألف دولار) وللسائق (خمسمائة. و خمسمائة) لكل مجموعة من المجموعات الأخرى. فأخرج الوزير من جيبه مبلغ: (ألف وخمسمائة دولار) وطلب من السفراء الثلاثة أن يقدم كل منهم: (خمسمائة). وسلم المبلغ للسفير ***محمد فاضل***.

وعند خروجنا من قاعة الشرف **الملكية** بمطار عالية الدولي بعد مغادرة الوزير والمدير المختار ***ولد حي*** أخرج السفير المبلغ من جيبه في ظرف مغلق ومده للجنرال الأردني وقال له: "هذه هدية متواضعة من معالي الوزير". ابتسم الجنرال وقال له: "شكرا جزيلا. نحن من ينبغي أن يقدم الهدايا لمعالي الوزير. ضيف جلالة **الملك** ومثل أخيه **فخامة الرئيس**". واعتذر عن استلام المبلغ.

وكانت مجموعة المرافقة تنظر إلينا نظرة خاصة. لأن الفعل الصحيح هو أن يوزع المبلغ أصلا على عدة مغلفات حسب عدد مجموعات المرافقة ويسلم لكل فرقة نصيبها. لكن للأسف قضي الأمر بهذا الشكل: وفي الطريق فتح السفير المغلف وأعاد لكل من السفراء الثلاثة مبلغه وقال لهم إن مبلغ الوزير سيرسله هو له.

وفي هذا الإطار كان العديد من المسؤولين الموريتانيين يزورون دمشق كل عام بحكم وظائفهم. أذكر منهم: ***محمد الامين ولد كتاب***. و***محمدن ولد محمد الحافظ***. و***محمد الامين ولد گيگ***. كل من هؤلاء شغل منصب مدير التعليم العالي: و***هيبتنا ولد سيدي هيبه***. رئيس جامعة نواكشوط و***أحمدو ولد دهاه***. مدير التعليم الفني بوزارة التهذيب الوطني و***محمد الحافظ ولد الطلبه***. مدير المعهد التربوي. وكنتُ أرافقهم في مختلف زياراتهم: وتقديرا منهم لخدماتي كانوا يطلبون مني ـ بإلحاح ـ أن أبلغهم كلما زرتُ نواكشوط. وكنتُ أعوّل عليهم في بعض الأمور العادية (**أحفظ فرشك الأبيض ليومك الأسود**). وبالمناسبة أذكر باحترام الأستاذ ***محمدن ولد محمد الحافظ***.

نعود إلى سوريا "أرض الشام" لنقول كلمة حق في هذا البلد الجميل بأرضه وبإنسانه. وبقيمه الحضارية وتراثه التاريخي: لقد عشت في هذا البلد حوالي (**ستة آلاف**) يوم. تعاملت فيها مع المسؤولين الكبار. ومع الأساتذة والأدباء. ومع رجال الأعمال والتجار البسطاء. ومع الفنانين والمطربين. ومع شرطة المرور وأمن المطارات. ومع بائع **لكنافه والبوزه والكازوز** والخضرجي. ومع مصلح السيارات والأحذية. ومع الغسال والخباز والنجار. ومع الحداد واللحام والحراز. دون أن أسمع كلمة سوء أو أتلقى إهانة أو ألاحظ ازدراء. موجه لشخصي أو لبلادي.

فحين تدخل سوريا ـ أخي القارئ ـ من أي باب من أبوابها المفتوحة الصدر يسألونك هذا السؤال التقليدي: "**الأخ من وين؟**" وعندما تجيب يقولون لك: "والنعم، (**أي وخيرت عندنا في موريتانيا**) أهلا وسهلا بك في بلدك سوريا". وبعد ذلك ستتمتع أذنيك ب: أهلا وسهلا، تكرم عينك، على العين والراس. من عيني هاذِ قبل هاذِ، البيت بيتك، المحل محلك، البلد بلدك؛ وعند الخروج يودعونك: "**أَنْشَا اللّه مَا رَيتْ شِ إِضَايْقَكْ في البلد؟** مع السلامة، **عيدها خيوه**". هكذا عشت في سوريا، وهكذا شاهدت الآلاف من أفراد الشعوب العربية تعيش فيها. فشكرا جزيلا لسوريا ولأهلها. وأرجو من اللّه العلي القدير أن يخرجها سالمة مما هي فيه الآن وأن تعود كما كانت وأحسن.

فلو لا دمشق لما كانت طلبطلة ولما زهت ببني العباس بغدان

وفي الوقت الذي نصل فيه إلى اختتام أحداث هذا الكتاب يكون العديد من الأحبة والإخوة الذين وردت أسماؤهم فيه قد غادرونا إلى الدار الآخرة. وبالمناسبة نتضرع للّه عز وجل أن يشملهم بمغفرته وأن يتغمدهم برحمته الواسعة وأن يسكنهم فسيح جناته وإنا للّه وإنا إليه راجعون.

الملحقات

وصلت عمليات التهريب التي قيم بها على حد معرفتي إلي (**276 مائتين وست وسبعين عملية**). خلال ست سنوات. وكانت نتائجها كالتالي: (**188.919 مائة وثمان وثمانين ألفا وتسعمائة وتسع عشر گروصا**) أي: (**1.889.190 مليون وثمانمائة وتسعا وثمانون ألفا ومائة وتسعين علبة**): ما يصل إلى (**37.783.800 سبعة وثلاثين مليونا وسبعمائة وثلاث وثمانين ألفا وثمانمائة لفافة**) من مختلف أنواع السجائر: هذه هي الطريقة التي يحسب بها الجمارك السوريون السجائر المهربة عندما يستولون عليها.

أما المبالغ الإجمالية المحصلة من هذه الكميات فلم أسجل منها بالتفصيل سوى: **أربعمائة ألف وتسعة آلاف وثمانمائة وخمسة وثلاثين دولارا**. أستفاد منها شخص واحد (**التالي هو الغالي**). وقد ذكرنا في متن هذا الكتاب بعض الأسباب التي حالت دون تدوين ذلك كاملا: هذا ويذكر القنصل الشرفي مبالغ أعلا من هذا بكثير وهي: (**ثلاثة ملايين وخمسمائة ألف دولار**). لصالح شخص واحد أيضا (**ألّ سَبْكَكْ بَالوَيْلَه فُبْنَكْ بَاحْوَيْلَه**). وقد أبديت له تحفظي على هذا المبلغ. ولكنه واثق من دقة معلوماته. وهو ـ كما أشرنا إليه ـ كان أيضا مطلعا على أمور لم تتح لي فرصة الاطلاع عليها بالتفصيل.

وكما ضاعت لي حقوق في السفارة بعد مغادرة السفير ***محمد محمود ولد ودادي***، لم يعترف بها خلفه. ضاعت لي أيضا أخرى في فترة القائم بالأعمال ***محفوظ ولد محمد أحمد***. لم يعترف بها السفير ***المختار ولد محمد موسى***. الذي ضيع لي هو الآخر حقوقا بنفس الطريقة. ويستطيع القارئ الكريم الاطلاع على الوثائق التي تثبت ذلك في المرفقات.

وقد بلغ عدد الساعات الإضافية التي لم تعوض لي. على مدى السنوات: 1989ـ1994: (**5234 خمسة آلاف ومائتين وأربعا وثلاثين ساعة**) إضافية.

وإليك أخي القارئ مجموعة مبالغ كنت قد تلقيتها إكراميات من رؤسائي في العمل:

ـ سعادة السفير ***محمد محمود ولد ودادي***: (قيمة تذكرة سفر من الجزائر العاصمة إلى تونس العاصمة. لا أعرف قدرها. وكذلك مبلغ ترتب على تغيير مسار تذكرة سفري من نواكشوط إلى دمشق. ومبلغ مائتي ريال سعودي). بالإضافة إلى تكاليف علاجي في المستشفى. والتي لا أعرف كم بلغت.

ـ المحاسب ***محمد أحمد ولد السالك***: (***خمسة وعشرين ليرة سورية***. ما يعادل نصف دولار أمريكي).

ـ سعادة السفير محمد ***فاضل ولد الداه***: **ثمانية عشر ألفا ومائة واثنتين وتسعين ليرة سورية، ما يعادل: أربعمائة وأربعة وستين دولارا**).

ـ المستشار ***الشيخ ولد أحمدو***: **سبع آلاف وستمائة وخمسين ليرة سورية. ما يعادل: مائة وثلاثة وخمسين دولارا**).

ـ المستشار ***عبد الله ولد بنحميدة***: **ثلاثة آلاف ليرة سورية. ما يعادل: ستين دولارا**).

ـ المحاسب محمد ***محمود ولد البار***: **أربعة آلاف وسبعمائة ليرة سورية. ما يعادل: أربعة وتسعين دولارا**).

ـ المستشار محفوظ ***ولد محمد أحمد***: **ألف ليرة سورية. ما يعادل: عشرين دولارا**).

الشخصيات التي لعبت أدوارا هامة في عملية اكتتابي في الوظيفة العمومية وتعييني دبلوماسيا

أصحاب الأدوار الأساسية

- صاحب الفكرة الطموحة وجنديها المجهول سعادة السفير محمد محمود *ولد ودادي*.
- صاحب القرار الشجاع والحاسم السيد *سيدي محمد ولد* بيه الملقب ديدي، المدير العام للميزانية والحسابات.
- صاحب الباع الطويل والتجاوب الكريم، الأستاذ *خطري ولد جدو*، الأمين العام لوزارة الشؤون الخارجية والتعاون.

أصحاب الأدوار المساعدة والتعاطف الطيب

- السيد *سيدي محمد ولد محمد فال (قريني)*، وزير الصناعة والمعادن.
- سعادة السفير *المختار ولد محمد موسى*.
- سعادة السفير *محمد فاضل ولد الداه*.
- سعادة السفير *أحمدو ولد سيدي*.
- المستشار الأول *الشيخ ولد أحمدو*.
- صاحب المتابعة الدقيقة، والمخلصة والفعالة، المهندس أحمد *ولد ودادي*.

وهنا تنتهي أحداث "مذكرات سائق" ونودع القارئ الكريم على أمل اللقاء به في أحداث «مذكرات دبلوماسي" التي يجري تدوينها الآن.

المرفقات

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمه: سيداحمد ولد مُبارك.
موظف بالسفارة الموريتانية. دمشق في 1986/09/23

إلى سعادة سفير الجمهورية الإسلامية
الموريتانية بدمشق، الأستاذ محمد فاضل
ولد الداه، عن طريق السيد محمد أحمد
ولد السالك، المسؤول عن الشؤون المالية.

الموضوع: طلب مساعدة.

يشرفني أن أحيطكما علما بأني تلقيت يوم أمس نبأ وفاة أحد أقاربي المقربين مما يتطلب سفري إلى موريتانيا، وفي هذه الحالة أحتاج إلى مساعدتكما، وموافقتكما على ما يلي:

- منحي مساعدة بمبلغ قدره: **4500 دولارا** بالسعر الرسمي.
- منحي إجازتي السنوية المستحقة عن سنتي : 85-86، كل هذا في حدود الإمكانيات المتوفرة، ومراعاة لظرفي.

وفي انتظار ردكما الكريم تقبلا فائق التقدير والاحترام.

سيد احمد ولد مُبارك

عـادل سقر

تبديل وتجديد كافة أنواع الاشطانات ولحام كافة أنواع المعادن

دمشق - زقاق الجن - حارة اليمن - تجاه الثانوية الصناعية - هاتف ٢٢٣٩١٦٣

المطلوب من السيد .... في / / ١٩٩

ق	ل.س	نوع العمل	العدد	ملاحظات

محمود أكرم البغدادي وأولاده

خدمة ميكانيك السيارات

دمشق - القدم - المجمع الصناعي الحديث رقم المحل ١٧

المطلوب من السيد .... في

القيمة ق	ل.س	نوع البضاعة	العدد	السعر	ملاحظات

محمود أكرم البغدادي وأولاده

خدمة ميكانيك السيارات

دمشق - القدم - المجمع الصناعي الحديث رقم المحل ١٧

المطلوب من السيد .... في

القيمة ق	ل.س	نوع البضاعة	العدد	السعر	ملاحظات

محمود أكرم البغدادي وأولاده

خدمة ميكانيك السيارات

دمشق - القدم - المجمع الصناعي الحديث رقم المحل ١٧

المطلوب من السيد .... في / / ٩

القيمة ق	ل.س	نوع البضاعة	العدد	السعر	ملاحظات

المؤسسة العامة للكهرباء
فرع كهرباء دمشق

ايصال

الاسم	العنوان
دولة العظم	صالحية ـ عرنوس ـ مؤسسة الكهرباء

رقم الايصال					رقم الاشتراك	رقم الصف
٤١١٢		٤	٩٤	تموز و آب	١٠٥٦٤٦	٠٠-٠٢-٠٠٢-٣٣-٠٢-٠٠٢

تأشيرة العداد السابقة	تأشيرة عداد الشهر الأول	تأشيرة عداد الشهر الثاني	الاستهلاك	القيمة ل.س	أجرة العداد	طوابع ورسوم مختلفة	المبلغ ل.س
٤٨٣٣١		٤٨٤٦١	١٣٠	٣٥,٥٠	١٠٠,٠٠	٦,٩٠	١٤٢,٤٠

قبض في / / توقيع الجابي

سفريات لبنان والاردن الموحد
دمشق
هاتف ٢٢٠٢٥١ ـ ٢٢٩٩٢٦
نمرة ٠٤٦٨٧
بتاريخ ١٩/١٠/١٩٩٤
اسم وعنوان المرسل الجمهورية العربية السورية
دمشق
اسم وعنوان المرسل اليه ... أ. ...
٤٢٥٧٩
محتويات الطرد ٩٢٢٢٨
رقم السيارة .... اسم السائق ....
ق.س
تاريخ التسليم .... اجرة الطرد ....
اسم وتوقيع المستلم ....
بموجب جواز سفر .
التوقيع

كشف حساب

التاريخ نوع السيارة رقم السيارة
٢١-١٠-١٩٩٤

السعر	البيان
٥	غسيل
	...
	بنزين ...
١٤٢٢٦٢	...

المؤسسة العامة للكهرباء
فرع كهرباء دمشق

ايصال

الاسم	العنوان
صدقي المصري	ابو رمانه حديقة الجاحظ

رقم الايصال					رقم الاشتراك	رقم الصف
٤٦٠		٤	٩٤	تموز و آب	٢٢٣٠٨٧	٠٠-٧٩-٠٤-٠٢-٠٠٣

تأشيرة العداد السابقة	تأشيرة عداد الشهر الأول	تأشيرة عداد الشهر الثاني	الاستهلاك	القيمة ل.س	أجرة العداد	طوابع ورسوم مختلفة	المبلغ ل.س
٣٠٩٠٠		٣١٢٥٠	٢٥٠	١٣٥,٠٠	١٠٠,٠٠	٢٣,٨٥	٢٥٨,٨٥

قبض في / / توقيع الجابي

المؤسسة العامة للكهرباء
فرع كهرباء دمشق

ايصال

الاسم	العنوان
صدقي المصري	ابو رمانه حديقة الجاحظ

رقم الايصال					رقم الاشتراك	رقم الصف
٤٦٠		٣	٩٤	ايار و حزيران	٢٢٣٠٨٧	٠٠-٧٩-٠٤-٠٢-٠٠٣

تأشيرة العداد السابقة	تأشيرة عداد الشهر الأول	تأشيرة عداد الشهر الثاني	الاستهلاك	القيمة ل.س	أجرة العداد	طوابع ورسوم مختلفة	المبلغ ل.س
٣٠٣٣٠		٣٠٩٠٠	٥٧٠	٢٨٧,٥٠	١٠٠,٠٠	٥٠,٥٠	٤٣٨,٠٠

قبض في / / توقيع الجابي

المؤسسة العامة للكهرباء
فرع كهرباء دمشق

ايصال

الاسم	العنوان
صدقي المصري	ابو رمانه حديقة الجاحظ

رقم الايصال					رقم الاشتراك	رقم الصف
٤٥٩		٢	٩٤	آذار و نيسان	٢٢٣٠٨٧	٠٠-٧٩-٠٤-٠٢-٠٠٣

تأشيرة العداد السابقة	تأشيرة عداد الشهر الأول	تأشيرة عداد الشهر الثاني	الاستهلاك	القيمة ل.س	أجرة العداد	طوابع ورسوم مختلفة	المبلغ ل.س
٣٠٢٦٠		٣٠٣٣٠	٧٠	١٧,٥٠	١٠٠,٠٠	٤,٠٠	١٢١,٥٠

المؤسسة العامة للكهرباء
فرع كهرباء دمشق

الاسم: محمد بديع اسكندراني	العنوان: ابو رمانه حديقة الجاحظ

رقم الايصال					رقم الاشتراك	رقم الصف
٤٥٧			٤	٩٤ تموز و آب	٢٢٧٢٢٩	٠٠-٠٧٦-٠٤-٠٢-٠٠٣

تأشيرة العداد سابقه	تأشيرة عداد الشهر الأول	تأشيرة عداد الشهر الثاني	الاستهلاك	القيمة ل س	أجرة العداد	طوابع ورسوم مختلفة	المبلغ ل س
٦٥٦٦٠		٦٥٩٦٠	٣٠٠	١١٠,٠٠	٢٠,٠٠	١٩,٦٠	١٤٩,٦٠

قبض في / / توقيع الجابي

المؤسسة العامة للكهرباء
فرع كهرباء دمشق
ايصال

الاسم: محمد بديع اسكندراني	العنوان: ابو رمانه حديقة الجاحظ

رقم الايصال					رقم الاشتراك	رقم الصف
٤٥٧			٣	٩٤ أيار و حزيران	٢٢٧٢٢٩	٠٠-٠٧٦-٠٤-٠٢-٠٠٣

تأشيرة العداد سابقه	تأشيرة عداد الشهر الأول	تأشيرة عداد الشهر الثاني	الاستهلاك	القيمة ل س	أجرة العداد	طوابع ورسوم مختلفة	المبلغ ل س
٦٥٦٠٠		٦٥٦٦٠	٦٠	١٥,٠٠	٢٠,٠٠	٢,٨٥	٣٧,٨٥

قبض في / / توقيع الجابي

المؤسسة العامة للكهرباء
فرع كهرباء دمشق
ايصال

الاسم: محمد بديع اسكندراني	العنوان: ابو رمانه حديقة الجاحظ

رقم الايصال					رقم الاشتراك	رقم الصف
٤٥٦			٢	٩٤ آذار و نيسان	٢٢٧٢٢٩	٠٠-٠٧٦-٠٤-٠٢-٠٠٣

تأشيرة العداد سابقه	تأشيرة عداد الشهر الأول	تأشيرة عداد الشهر الثاني	الاستهلاك	القيمة ل س	أجرة العداد	طوابع ورسوم مختلفة	المبلغ ل س
٦٤٥٢٥		٦٥٦٠٠	١٠٧٥	١٠٢٢,٥٠	٢٠,٠٠	١٧٧,٢٥	١٢١٩,٧٥

المؤسسة العامة للكهرباء
فرع كهرباء محافظة دمشق
دفتر ٦٧٥٤٩

ايصال بمبلغ / ٢٥ / ليرة سورية

فقط خمسة وعشرون ليرة سورية لا غير

وذلك لقاء الغرامة المترتبة على المشترك بسبب تأخره عن تسديد قيمة الفاتورة بعد انقضاء شهر من الاعلان عن صدورها في الصحف المحلية

خاتم المركز ٢٠/٤/٢٠٠٠
التاريخ
القابض

٢/٢/٢٠٠٠

المؤسسة العامة للكهرباء
فرع كهرباء محافظة دمشق
دفتر ٦٧٥٤٨

ايصال بمبلغ / ٢٥ / ليرة سورية

فقط خمسة وعشرون ليرة سورية لا غير

وذلك لقاء الغرامة المترتبة على المشترك بسبب تأخره عن تسديد قيمة الفاتورة بعد انقضاء شهر من الاعلان عن صدورها في الصحف المحلية

خاتم المركز
التاريخ
القابض

المؤسسة العامة للكهرباء
فرع كهرباء محافظة دمشق
دفتر ٦٧٥٥٠

ايصال بمبلغ / ٢٥ / ليرة سورية

فقط خمسة وعشرون ليرة سورية لا غير

وذلك لقاء الغرامة المترتبة على المشترك بسبب تأخره عن تسديد قيمة الفاتورة بعد انقضاء شهر من الاعلان عن صدورها في الصحف المحلية

خاتم المركز
التاريخ
القابض

المؤسسة العامة للكهرباء
فرع كهرباء محافظة دمشق
دفتر

ايصال بمبلغ / ٢٥ / ليرة
فقط خمسة وعشرون ليرة سوري

وذلك لقاء الغرامة المترتبة على المشترك بسبب
قيمة الفاتورة بعد انقضاء شهر من الاعلان عن ص
المحلية

خاتم المركز
التاريخ
القابض

المؤسسة العامة للكهرباء
فرع كهرباء محافظة دمشق
دفتر

ايصال بمبلغ / ٢٥ / لير
فقط خمسة وعشرون ليرة سور

وذلك لقاء الغرامة المترتبة على المشترك بسب
قيمة الفاتورة بعد انقضاء شهر من الاعلان عن
المحلية

خاتم المركز
التاريخ
القابض

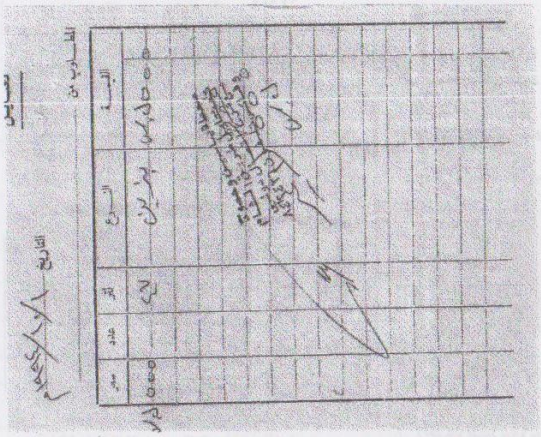

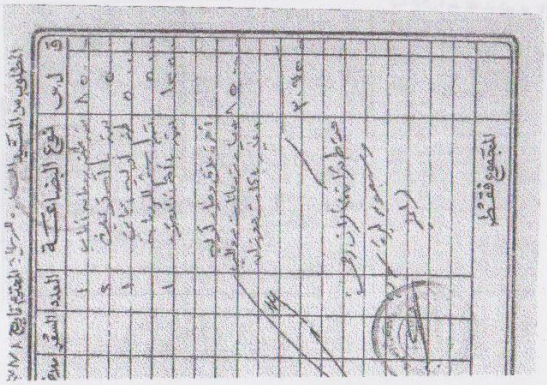

محطة الفرات

رقم ٣٢٠٩

في ....

الرجاء تسليم .... رقم السيارة ....

ق.	ليرة لبنانية	النوع	ليتر
		بنزين ممتاز	
		بنزين عادي	
		مازوت	
		زيت	
		زيت فرام	
		فلفولين	
		غسيل - تشحيم	
		المجموع	

والقيمة علينا بالحساب

المسلم
محطة الفرات

المستلم

صاحبها : فهمي ياسين وأولاده

المصنع - طريق الشام

مشحم الافغاني

عبد اللطيف

مبيع كافة انواع الزيوت والشحوم

غيار زيت - تشحيم

دمشق - رقاق الجن - الجادة الثالثة

المطلوب من السيد ....

ل.س	نوع البضاعة
٤٠٠	[illegible]

المؤسسة العامة السورية للتأمين
الادارة العامة ـ دمشق
هاتف : ٢١٨٤٣٠/١
تلكس : ٤١٢٧٣٧
برقيا : سيراسور
ص ب : ٢٢٧٩

حلب	٣٣٩٠٠٠	حمص	٧٣١٠
حماه	٢٤٠٢٥	اللاذقية	٣٩٤٨
طرطوس	٢١٦٦٢	ادلب	١١٨١
الرقة	٢٠٠٧٦	دير الزور	١٤٩٠
الحسكة	٢٢٥٤١	درعا	١٢٥٣
السويداء	٢٢٨٩٣	تدمر	١٥٥
بانياس	٢١٣٥٦	ريف دمشق	٢٢٤٦٠

عقد تأمين الزامي لمركبة آلية للأضرار الجسدية والمادية
صادر وفقاً لاحكام الفصل الثاني من الباب التاسع من قانون السير رقم ١٩ لعام ١٩٧٤
يسري مفعول هذا العقد ضمن أراضي الجمهورية العربية السورية